Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

دراسات في

التراث الجغرافي العربي الإسلامي

تأليف

د. عبد علي الخفاف
رئيس قسم الجغرافيا - جامعة الكوفة

د. محمد أحمد عقلة المومني
محاضر غير متفرغ - جامعة اليرموك

دار الكندي للنشر والتوزيع

Bibliotheca Alexandrina
0180097

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

دراسات في

التراث الجغرافي العربي الإسلامي

تأليف

الدكتور عبد علي الخفاف
رئيس قسم الجغرافيا - جامعة الكوفة

الدكتور محمد أحمد عقلة المومني
محاضر غير متفرغ - جامعة اليرموك

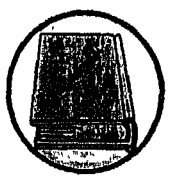

دار الكندي للنشر والتوزيع

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

حقوق الطبع محفوظة

1420هـ - 2000م

دار الكندي للنشر والتوزيع

شارع الحصن ـ مقابل البنك الأهلي الأردني

تلفاكس 7244323 ص . ب 893

اربد ـ المملكة الأردنية الهاشمية

رقم الإيداع لدى المكتبة الوطنية:9991/4/467

المؤلف أو من هو في حكمه: **عبد علي الخفاف ـ محمد أحمد عقلة المومني**

دراسات في التراث الجغرافي العربي الاسلامي

الموضوع : جغرافيا

تراث ـ جغرافيا

اربد ـ دار الكندي للنشر والتوزيع

تم اعداد بيانات الفهرسة و التصنيف الأولية من قبل المكتبة الوطنية

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المحتويات

الفصل الأول
قارة إفريقيا في التراث الجغرافي العربي الإسلامي

مقدمة ---------- 6

النشاط الجغرافي العربي ---------- 9

المصادر اللغوية ---------- 9

إفريقيا والجغرافيون العرب المسلمون ---------- 17

الكيان الطبيعي للقارة ---------- 17

المساحة والمسافات ---------- 26

الأقطار الأفريقية ---------- 27

ظاهرات السطح الطبيعية في القارة ---------- 31

الأحوال المناخية ---------- 38

الكيان البشري للقارة ---------- 41

الكيان الاقتصادي ---------- 46

الخلاصة ---------- 55

الفصل الثاني
ابن خلدون في التراث العلمي

رؤيته للتاريخ البشري ---------- 63

طبيعة الدولة ---------- 65

الفصل الثالث
الخصائص الرئيسية لجغرافية الأرض عند أبي الفداء

شكل الأرض ---------- 74

الأدلة على كروية الأرض ---------- 74

الموقع الفلكي للأرض ---------- 75

خطوط الطول والعرض ---------- 75

توزيع اليابس والماء ---------- 79

جغرافية البحار والمحيطات ---------- 79

جغرافية البحيرات ---------- 82

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

جغرافية الأنهار ---------- 83
جغرافية التضاريس ---------- 86
المأهول وغير المأهول ---------- 88
الجغرافيا الاقليمية ---------- 90

الفصل الرابع
الفكر الجغرافي عند الرازي

مولده ونشأته ---------- 93
اهتمامات الرازي ---------- 95

الفصل الخامس
نخبة الدهر في عجائب البر والبحر للدمشقي

الدمشقي ---------- 101
بحر الروم ---------- 103
الخصائص الطبيعية والبيولوجية للبحر ---------- 108
الجزائر في البحر المتوسط ---------- 109

الفصل السادس
النساء الراشدات في الوطن العربي
مؤشرات ديموغرافية

الغرض من الدراسة ---------- 111
الدراسات السابقة ---------- 111
مصادر الدراسة وطريقة القياس ---------- 112
نساء الوطن العربي في العالم ---------- 113
التوزيع الجغرافي للنساء الراشدات في الوطن العربي ---------- 120
تطور حجم النساء الراشدات ---------- 127
بعض خصائص التركيب والتكوين ---------- 135
النساء العاملات في الأقطار العربية ---------- 141

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المقدمة

لم يكن العرب قبل الاسلام اناساً بلا حضارة، بل كانوا على اتصال مع جهات العالم المختلفة. ولقد هز الاسلام حضارات العالم واسقطها مثل حضارة الفرس وحضارة الروم، وانتشر خلال فترة قصيرة من المحيط الاطلسي غرباً إلى سواحل جنوب شرق اسيا شرقاً وإلى وسط اوراسيا شمالاً وإلى مجاهل افريقيا جنوباً. وشمل اليوم معظم انحاء كوكبنا بعالمه القديم والجديد.

فالبقاع التي امتد عليها الاسلام واسعة ذات شعوب مختلفة واقتصاديات وطرق حياة متباينة، لقد تأثر كل ذلك بالاسلام، فقد أثر بصورة خاصة في افكار الناس الذين اعتنقوه.

لقد امر الاسلام اتباعه بطلب العلم، وحين توسع المسلمون بفتوحاتهم تعرفوا على مدن وانهار واراضي وشعوب جديدة. وقد احتاج انتشار الاسلام إلى معرفة اراضي وشعوب العالم، وبدأ العلماء والرحالة يكتبون عن المسالك وطبوغرافيتها ومسافاتها، لأن اي حاكم يجب أن يعرف كل ما يدور في رقعته.

يتضمن الكتاب مجموعة من الدراسات التي بحثت في التراث العلمي العربي الاسلامي، وهي دراسات شاهدة على عظمة الاسلام، فلم يقتصر العلماء المسلمين في كتاباتهم عن البلاد العربية وحدها، بل شمل الاراضي التي وصلها الاسلام وهي معظم اراضي العالم القديم (قارات اسيا وافريقيا) واوروبا.

والعالم اليوم على ابواب القرن الحادي والعشرين، فمن اليوم ١ تموز ١٩٩٥ وحتى نصل إلى ١ كانون الثاني ٢٠٠١ بقي خمس سنوات وستة شهور ليدخل

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

العالم القرن الحادي والعشرين... العالم ما زال يكتب ويحلل افكار العلماء المسلمين. فالدراسات التي تضمنها الكتاب تبرز عبقرية العلماء المسلمين العلمية في الوصف الشامل لكل الوحدات الجغرافية التي وصلها الاسلام، وقدموا للعالم انذاك كتابات عن افريقيا واسيا وابدعوا في مجال رسم الخرائط، واوضحوا للعالم أسس الدول القوية.

وقد تضمن الكتاب ستة فصول: تناول الأول

قارة افريقيا في التراث العربي الاسلامي

أما الفصل الثاني فقد تناول بالدراسة ابن خلدون في التراث العلمي

ثم تناول الفصل الثالث الخصائص الرئيسة لجغرافية الأرض عند أبي الفداء.

ثم تناول الفصل الرابع الفكر الجغرافي عند الرازي

أما الفصل الخامس فقد تناول نخبة الدهر في عجائب البر والبحر للدمشقي .

وأخيراً تناول الفصل السادس النساء الراشدات في الوطن العربي.

°

المؤلفان

اربد ٢٦ حزيران ١٩٩٥

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الأول

قارة افريقيا في التراث الجغرافي العربي الاسلامي

مقدمة

تمثل الحضارة العربية الأسلامية السلاسل الزمنية لتاريخ الحضارة البشرية حيث ساهم العرب المسلمون في بناء العالم الحضاري بعد أن تعرفوا على جهود الأمم السابقة بالترجمة والنقل، فاضافوا اليها واكتشفوا نواقص الفكر فيها وابدعوا وابتكروا واكتشفوا الكثير.

والتراث العلمي في هذه الحضارة يمثل جانباً من التراث العلمي البشري تقترن أهميته بأهمية الحضارة ذاتها، لقد خلف لنا العرب المسلمون، من العلماء والباحثين جهوداً علمية واسعة في مختلفة نواح المعرفة، لا زال المهتمون بدراسة تاريخ العلم والتراث يبذلون الجهود الكبيرة في سبيل التعرف عليها.

لقد شمل هذا التراث الاهتمام بعلوم الرياضيات والطبيعة والطب والصيدلة والكيمياء والأحجار والمعادن وتصنيفات النبات والحيوان والهندسة والعمارة إلى جانب الدراسات الأنسانية في مجال اللغة والأدب والتشريع وعلوم القرآن والسيرة والتاريخ والفلسفة والمنطق والاجتماع والجغرافية.

وبديهي أن يحتفل العالم الاسلامي بمطلع كل عام جديد، تذكيراً لعهد المساهمة الفاعلة في بناء كيان العالم الحضاري، وتأكيداً بأن خواص هذه

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الحضارة لا زالت موطن اعتزاز كافة مفكري العالم ومنظريه، حيث أنها من أساسيات حضارة عصرنا.

وإذ يحتفل العالم الاسلام بمطلع العام الهجري الجديد فهو على أبواب مرحلة تاريخية جديدة. فخصائص العالم المعاصر اختلفت عما كانت عليه مطلع القرن الماضي، مما يشجعنا على استلهام هذا التراث في تكوين عصري يتجاوب مع حاجات الزمن، وليعود العالم العربي والعالم الاسلامي ثانية في التأثير الأيجابي لحركة التاريخ، والتراث العلمي الجغرافي يشكل جزء هام من نشاط العلماء أبان نهوض الحضارة الأسلامية وازدهارها، وكان له دور كبير في تطور الفكر الجغرافي العالمي، في حفظ مخلفات الحضارات القديمة، واليونان والرومان، وما قدمه من معلومات عن مساحات جديدة من العالم ومن نظريات في تفسير الظاهرات الطبيعية والبشرية على سطح الأرض.

وقد أشار عدد كبير من مستشرقي العالم، الذين امتازت مواقفهم بالموضوعية والدقة العلمية، ونذكر على سبيل المثال، المستشرق الألماني (شبرنكر- Seprenger) الذي تحدث كثيراً عن القيمة العلمية لكتابي (المقدسي) الموسوم (احسن التقاسيم في معرفة الأقاليم) والذي يدل اسمه على منهجيته الأقليمية، وكتاب (الهمداني) "صفة جزيرة العرب" كأهم كتاب في الوصف الجغرافي الخاص. والمستشرق الروسي "كراتشكوفسكي" وقد قدم دراسة علمية مستفيضة عن الأدب الجغرافي العربي ودوره في تطور التراث الجغرافي الأنساني.

وبهذا الكتاب الموجز حاولنا التعرف على جهود الجغرافيين العرب المسلمين في دراسة "التراث العلمي الجغرافي" مساهمة في بعث التراث للأستفادة من معطياته في توجهنا الحضاري، كما أننا استهدفنا معرفة الكيفية التي تتطور بها المعرفة البشرية، وأخيراً دحض الآراء المتحيزة التي تحاول أن تقلل من شأن المساهمة العربية والاسلامية في ميدان المعرفة والتراث العلمي.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قارة افريقية في التراث الجغرافي العربي الاسلامي

(١) النشاط الجغرافي العربي

(٢) المصادر اللغوية

نحاول أن نتعرف على ملامح الاهتمام بالجغرافية عند العرب قبل الاسلام وبعده وما هو دور الدين الاسلامي بزيادة هذا الاهتمام واتساعه.

لقد كتب عددمن الباحثين عن الجغرافية عند العرب قبل الاسلام ولخص هذه الكتابات عدد آخر منهم، على سبيل المثال فقد قدم: الدكتور "ابراهيم السامرائي" استاذ اللغة العربية بجامعة بغداد والدكتور "محسن جمال الدين" استاذ اللغة العربية بجامعة بغداد والأستاذ "حبيب الراوي" أستاذ اللغة العربية بجامعة بغداد وغيرهم دراسات عن المصادر اللغوية للجغرافية عند العرب. ومن هذه الدراسات يتضح أن المستشرقين نبهوا وأشاروا إلى الدور الهام للجغرافية العربية الأسلامية، وهم بذلك عنوا المختصين بكتابة الجغرافية، أن صح هذا التعبير "في القرون الوسطى" إلا أنهم اغفلوا أن مادة الجغرافية الأولى أو نشأة الفكر الجغرافي العربي الأولى كانت على يد نخبة من علماء اللغة ودارسيها والباحثين فيها.. فقد عنى اللغويون الأقدمون بتحديد البقاع والمنازل الكثيرة التي وردت في الشعر الجاهلي والأسلامي وأحاديث الرسول الكريم (ص). والبعض يؤكد أن الجغرافية دخل في اصله عند العرب من باب الشعر والأدب فقالت الشعراء ما شائت ثم حمل اللغويون والرواة وزر تعريفها وتحديدها.

وسار على آثار أولئك نفر من هم أقرب للاختصاص هم أهل البلدان والذين تأثروا بترجمات الحضارات. وأشار إلى هذين الأتجاهين في الكتابة الجغرافية "ياقوت الحموي" في مقدمة كتابه "معجم البلدان" ويذكر من بين هؤلاء اللغويين:

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

- "الكلبي" المتوفي عام (٢٠٤ هـ) ومن مؤلفاته:

الأنهار، الأقاليم، البلدان الكبير، البلدان الصغير، اشتقاق البلدان، انساب البلدان.

- "ابن حموية" وله كتاب الجبال والأودية.
- "البكري" وله كتاب معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع.
- "الزمخشري" وله كتاب الجبال والأمكنة والمياه.

أن هؤلاء اللغويين والمتأدبين وغيرهم حرروا المادة اللغوية الأدبية وهي مادة جغرافية.

ويعتبر "المخصص" لابن سيد" أهم ما كتب اللغويون، وهو من علماء القرن الخامس الهجري. وقد تطرق فيه الباحث إلى ظواهر سطح الأرض الطبيعية والبشرية وحاول أن يقدم التفسيرات لتأثيرات الطبيعة على نشاط الانسان وفعالياته، وتأثيرات البيئة الطبيعية في نمو النبات وتوزيع الحيوان [١].

ولأجل الأجابة على الأسباب التي دفعت العرب للاهتمام بالجغرافية والظاهرات الجغرافية فأننا نعود إلى طبيعة البيئة التي عاش بها العرب في بادية ارتبطت حياتهم بظاهرات السطح فيها وظاهرة صفحة السماء عليها، فقدروا قيمة المطر وحاولوا التعرف على مواسمه. ولذلك فاستدلوا على حركات الكواكب في السماء فظهر عندهم "علم الأنواء" وكانوا يستعينون بالنجوم في تجوالهم وترحالهم وفي حساب التقويم الزمني بمعرفة شهور العام وفصوله ومعرفة ساعات الليل والنهار فجعلوا لكل ساعة منها اسما، ولاهتمام عرب البادية بالنجوم يذكر "الجاحظ في كتابه "الحيوان" ٩/ ٣١. سئلت اعرابية فقيل لها (تعرفين النجوم؟)

قالت: سبحان الله، أما أعرف اشباحاً وقوفاً على كل ليلة.

وسئل أعرابي عن ذلك فقال: ويل أمك من لا يعرف اجذاع بيته:[٢]

ولهذا الاهتمام الواسع ظهر بينهم علم (الهيئة) أو (علم النجوم) أو (علم الفلك) حيث نشطت أفكار التنجيم والربط بين حوادث الأرض وحركات النجوم.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ب: المصادر الجغرافية:

وكانت الخطوة الثانية بعد المصادر اللغوية حيث أفرد الباحثون لكل موضوع كتاباً كالخيل والأبل والمطر والنجوم ونحوها، وبعدها تناولوا الموضوعات الجغرافية بكتب مستقلة يتعلق بعضها بالأنواء والبعض الآخر بالمسالك والممالك.

والحقيقة أن استعمال كلمة (جغرافية) كان نادراً عند العرب لدرجة أنهم استعملوها لتدل على المفاهيم الجغرافية الافريقية سيما فيما يخص "بطليموس" الجغرافي الاغريقي القديم، وظلت كلمة (جغرافية) عندهم مصطلحاً علمياً لم يحاولوا أن يجدوا له مقابل في العربية كما أشار "حاجي خليفة" في "كشف الظنون"[٣].

وبقيت كتب الجغرافية تحمل اسماء "البلدان" أو "معجم البلدان" أو "تقويم البلدان" أو "عجائب البلدان" أو "المسالك والممالك".

وتحدث عدد كبير من مستشرقي العالم عن اصالة الفكر الجغرافي لدى العرب وعن اعتمادهم على ما ورثوه من اليونان والرومان. وقد جمع الدكتور ابراهيم شوكت أدلة علمية قاطعة عن عدد من المستشرقين الذين يؤكدون أصالة الفكر الجغرافي العربي[٤] والذي مر بمرحلتين هما: مرحلة (المدرسة اللغوية) من القرن الثاني للهجرة حتى أواسط القرن الثالث، ثم مرحلة "المدرسة الجغرافية"، وقد ابتدأت "بالمسالك والممالك" وعاشت مع المدرسة اللغوية في أواسط القرن الثالث الهجري وامتدت إلى مطلع القرن الرابع، ثم "أخبار البلدان" وتبحث عن شؤون اقاليم العالم والعالم الاسلامي على وجه الخصوص. ولا نغفل أن الطبيعة التي عاشها العربي الجاهلي حتمت عليه التعرف وملاحظة بعض الظاهرات الجغرافية "الاسلام والنشاط الجغرافي".

للأسلام دور بارز في تقدم المعرفة الجغرافية يتلخص هذا الدور بالجانب الديني وتأدية الفرائض الدينية والجانب السياسي حيث اتسعت دولة الخلافة الاسلامية، أن أداء الفرائض الدينية تستوجب من المسلمين التعرف على بعض

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الظاهرات الجغرافية والفلكية فلا بد للمسلمين من معرفة الجهات الأربعة لكل مكان يصلون اليه لكنت يحددوا "القبلة" ومواعيد الصلاة والصوم ولرحلة "الحج" من مشرق العالم الاسلامي ومغربه دور فعّال في التعرف على ممالك ومسالك هذا العالم وأهم خواصه الطبيعية والبشرية والاقتصادية، كما أن اجتماع المسلمين من هذه الأقاصي في البيت الحرام يساعد على ذلك التعرف ايضاً.

ويضاف إلى ذلك الرحلات لطلب العلم ولأغراض التجارة سيما أن التجارة في ابان النهضة الاسلامية استخدمت الطرق البرية والبحرية وتجاوزت حدود العالم الاسلامي إلى أواسط "افريقيا" وشمال شرق أوروبا وجنوب شرق "آسيا؛ ولكثرة ما حصلت من رحلات وسفرات بعرض البحار وعلى طول البراري ابتدعت شخصية "السندباد البحري" الخالدة التي ارتبطت اسفاره بالأدب الجغرافي.

ومن أسباب ذلك النمو في المعرفة الجغرافية كان اتساع رقعة الدولة الاسلامية[٥] فأن هذا الاتساع وتدعيم سلطانها في القرنين الثامن والتاسع للميلاد، أدى إلى ظهور مهام إدارية خاصة في مجال الشؤون المالية والخراج، فلأجل الحصول على الخراج كان لا بد من الاستفادة ممن لهم علاقة في مسح الأراضي، كما أن ظروف الأحوال الجديدة استلزمت جمع المعلومات الدقيقة عن الولايات وتقسيماتها وعدد الأماكن المأهولة والمحاصيل الزراعية والصناعية لغرض تقدير الخراج والضرائب العينية والنقدية. وأدى تنفيذ هذه المهمة إلى ظهور كتب الخراج التي قصد بها أول الأمر ارشاد عمال الخراج ولكنها لم تلبث أن أصبحت في متناول أيدي الجميع.

ومن جانب آخر تطلبت المركزية في النظام الأداري الذي تجمعت خيوطه في بغداد ودمشق الكشف عن طرق جديدة للمواصلات واستقصاء معلومات دقيقة عن تلك الطرق مع تعداد المراحل ومناز البريد وتحديد المسافات ومعرفة ظروف السفر.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويضاف إلى ذلك أن مصالح الدولة اقتضت عدم الاكتفاء بمعرفة أراضيها وحدها، بصفتها أكبر قوة عالمية، فكان من الضروري أن تحصل على معلومات دقيقة عن الأمصار الأخرى سيما تلك المتاخمة لحدودها، وقد ساعد على ذلك ظروف السلم والحرب، على حد سواء، حيث أمكن الحصول على المعلومات من سفارات الدولة وأسرى الحرب.

نستخلص مما تقدم أن الحضارة الاسلامية، بشرائع الدين وفروضه وتشجيعه لطلب العلم ولاتساع رقعة الخلافة، ونشاط المسلمين السياسي والاقتصادي، أثر واضح في زيادة النشاط الجغرافي، على صعيد جمع المعلومات الجغرافية الوصفية واستكشاف جهات غير معروفة لمن قبلهم، وعلى صعيد تفسير الظاهرات وربط علاقاتها المكانية ووضع النظريات لذلك، وشمل هذا الاهتمام جوانب الطبيعة الطبيعية والبشرية والاقتصادية.

ولأجل مقارنة ما عرفه الجغرافيون العرب والمسلمون بما عرفه من قبلهم نذكر أنهم عرفوا "اوروبا" بأجمعها بأستثناء أقصى شمالها وعرفوا النصف الجنوبي من "آسيا" كما عرفوا "افريقيا" جتى خط عرض (١٠) درجات شمال خط الاستواء وساحلها الشرقي إلى رأس كرينتس "قرب مدار الجدي"[٦].

لقد ترك الجغرافيون العرب المسلمون وصفاً لجميع البلدان من اسبانيا غرباً إلى تركستان ومصب السند شرقاً، لكافة المناطق المأهولة والمزروعة والصحاري. وبينوا مدى انتشار النباتات المزروعة والطبيعية وتوزيع الحيوانات البحرية والنهرية والبرية والطيور وأماكن وجود المعادن، سيما المعادن الثمينة والأحجار الكريمة، وتناولوا السكان بالوصف، من حيث الشكل والهيئة واللغة والدين والعادات الاجتماعية والفعاليات الاقتصادية، ولم يقتصر ذلك على حدود العالم الاسلامي بل تجاوزتها إلى حدود العالم المعروف يومذاك.

وفيما يتعلق بأفريقيا فلأول مرة تظهر في المؤلفات الجغرافية العربية دراسات لوصف جهات القارة وصفا مفصلا وقد استمرت معلوماتهم تمثل القول الفصل في هذا المجال لحين ظهور المستكشفين الأوروبيين في القرن التاسع عشر[٧].

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

معرفة اليونان والرومان بافريقيا

قبل التعرف على جهود الجغرافيين العرب والمسلمين لدراسة هذه القارة والكتابة عنها لا بد من الأشارة السريعة إلى ما وصل اليه قبلهم. فقد نشطت الجغرافية اليونانية والرومانية في دراسة العالم حينذاك.

وبالنسبة لقارة افريقيا فالمعروف أن الرومان هم أول من أطلق هذا الأسم على القارة[٨] وكانت معرفتهم بهاومعرفة اليونانيين من قبلهم تعود إلى ما قبل الميلاد بقرون عديدة. ويمكن أن نلخص المعرفة اليونانية والرومانية بالقارة بالنقاط التالية:

١- وصفوا الساحل الشمالي للقارة وصفا جغرافياً مفصلا سيما مصر والساحل الليبي، فدراسات (هيرودوتس ادوارد هيكانوس) عن الليبيين وعاداتهم ذات قيمة جغرافية وتاريخية. وربما جاءت دراساتهم عن هذه الجهات بشكل مكثف بسبب أنها وقعت تحت نفوذهم السياسي لفترة طويلة. وكانوا يطلقون على الساحل الليبي اسم (سيرين- Cyren).

٢- درسوا مصر من شمالها إلى جنوبها للسبب المذكور آنفا، وحاولوا تقديم التفسيرات لجريان النيل من الجنوب إلى الشمال وفيضانه في موسم الصيف، وهو الفصل المعروف بالجفاف لجميع أنهار العالم تقريباً، وذهبوا لذلك إلى شتي الاعتقادات حتى توصل البعض منهم أن سبب فيضان النيل صيفاً يعود إلى سقوط الأمطار وسط القارة خلال هذا الفصل[٩] ولم يستطيعوا تحديد منابع النيل عدا (بطليموس) الذي أوضح أنها من بحيرة جنوب خط الأستواء ومن جبال أطلق عليها اسم جبال القمر.

٣- وبصورة عامة كانت معلوماتهم عن جنوب مصر قليلة وغامضة وكانوا يطلقون على تلك الجهات (اثيوبيا) واعتبروها بلاد السود الحقيقيين، وذكر (بطليموس) الجغرافي الشهير الذي عاش منتصف القرن الثاني للميلاد، أن الجهات المعمورة في افريقيا تنتهي بالقرب من خط الاستواء، فما وراءه بلاد غير مسكونة بسبب شدة الحر.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٤- وكانت معرفتهم بالساحل الشرقي تنتهي عند الحدود الجنوبية للصومال والتي أطلق على رأسها اسم (براميوم) وبالساحل الغربي كانت تشوب معلوماتهم الخرافة. فقد ساد الاعتقاد بأن من غير الممكن التطواف حوله لاندفاع المحيط الاطلسي في تلك الجهات وكثرة الطين والحشائش فضلاً عن ارتفاع درجة الحرارة، وكان يروج مثل هذه الأفكار جغرافيون كبار امثال (بطليموس وهيرودوتس).

٥- وساد الاعتقاد لديهم أن جنوب القارة يمتد في ارض يابسة، وأن البحر الأحمر يتصل بالمحيط الهندي مكوناً بحيرة مغلقة، وكان من أشد المتحمسين لهذا الرأي (بطليموس) كما يتضح ذلك من خارطته التي رسمها للعالم شكل (١). وكان من نتيجة هذا الاعتقاد لم يفكر أي مكتشف حتى نهاية القرون الوسطى في الطواف حول القارة أو الوصول إلى الهند عن طريق المحيط الأطلسي حتى نجح (بارثليوديز- Diaz) ومن بعده (فاسكودي كاما Gama) عام (١٤٩٨) في تنفيد الاعتقاد[١٠].

٦- رسموا القارة في خوارطهم التي رسموها للعالم. وتعتبر خارطة بطليموس من أدق الخوارط التي يمكن الركون اليها لتخليص معرفتهم بالقارة. ومن هذه الخارطة نلاحظ افريقيا كتلة واسعة من اليابس متصلة بيابس العالم القديم (اوروبا وآسيا) عن طريق شبه جزيرة سيناء وقد أطلق على البحر الذي يفصلها عن آسيا اسم (الخليج العربي) بدلاً عن البحر الأحمر. وفيها يبدو النيل يمتد من منابعه في جبال القمر حتى مصبه في البحر المتوسط. ويحد القارة من الجنوب ارض مجهولة ومن الغرب الأوقيانوس، وعرفها بأوسع جهاتها شمالاً باسم (ليبيا) وبأوسع جهاتها جنوباً باسم (اثيوبيا).[١١] هذه هي أهم خصائص المعرفة الجغرافية لليونان والرومان بهذه القارة وسنحاول خلال الصفحات القادمة أن نتعرف على جهود العرب والمسلمين للتعرف عليها.

شكل (١)

خريطة بطليموس للعالم (منتصف القرن الثاني للميلاد)

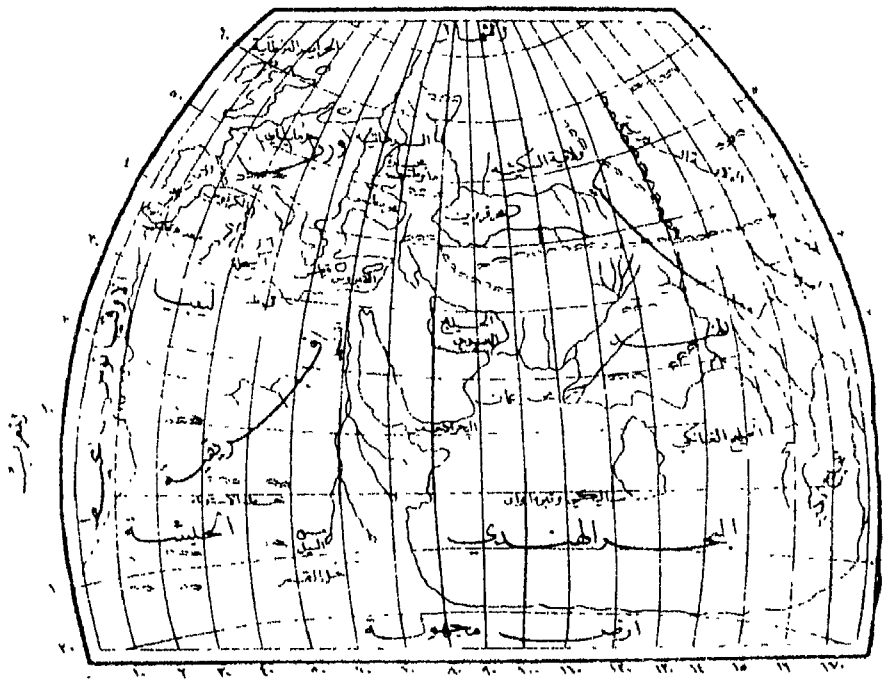

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

(٣) افريقيا والجغرافيون العرب المسلمون:

المعروف من الدراسات التاريخية أن رقعة الأرض التي حكمها العرب المسلمون في العالم القديم سيما في آسيا وافريقيا، قد تجاوزت كثيراً المساحات التي كانت تحت النفوذ اليوناني والروماني حتى خلال أعظم عهود الامبراطورية الرومانية، وقد اقترن اتساع رقعة الأرض مع تعاظم النشاط التجاري واتساع رقعته إلى مستوى لم تشهده امبراطورية الاسكندر ولا الأمبراطورية الرومانية أيضاً. لقد امتد النشاط التجاري للمسلمين إلى ما وراء حدود العالم الاسلامي، فتوغل التجار داخل الصحراء الكبرى وعبدوها وأقاموا صلات مع جهات افريقيا الغربية في غانة والنيجر والسنغال. ووصلوا إلى خط عرض (١٠) شمالاً. وتجولت سفنهم على امتداد السواحل الشرقية حتى (مدغشقر- جزيرة القمر).

من ذلك، تجمعت لديهم معلومات جغرافية عن العالم المعروف يومذاك فعرفوا الكثير عن افريقيا مما لا يعرفه اليونان والرومان وتوغلوا في جهاتها الداخلية فاستكشفوها وكتبوا عنها.

(٤) الكيان الطبيعي للقارة:

الموقع والحدود والمسالك:

تشير الآثار الجغرافية والكارتوكرافية التي خلفها الجغرافيون العرب المسلمون في الفترة المبكرة لنشاطهم، أنهم حددوا مواقع الممالك للعالم حسب مفهوم اقليمي، فوزعوا تلك الممالك على سبع اقاليم، وكانت الأقاليم على شكل دوائر متلاصقة، فالحبشة تقع ضمن الأقليم الثاني المعروف بأقليم "الحجاز" وهو إلى الجنوب من الأقليم الرابع. ويشمل بالأضافة إلى الحبشة كل من الحجاز وعدن واليمن وبادية العرب والجزيرة. ومصر والساحل الشمالي للقارة حتى المحيط الأطلسي، وبلاد السودان فتقع ضمن الأقليم الثالث المسمى اقليم (مصر) وهو إلى الغرب الشمالي من الاقليم الرابع ويشمل اضافة إلى مصر والشام وما بعدها مصر حتى أقصى المغرب والسودان والبربر.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ومن ذلك يتضح أن معظم أراضي القارة تقع ضمن "اقليم مصر" أي ضمن الأقليم الثالث. وعلى سبيل ذكر الاختلافات في تحديد بعض مواقع جهات القارة من هذه الاقاليم يذكر "المسعودي" أن مصر وافريقيا ويقصد بها تونس والبربر ويقصد بها بلاد المغرب تقع ضمن الأقليم الرابع[١٢] بينما ورد عند "المقدسي" أن (... أدنى أرض السودان إلى المغرب...) من الاقليم الأول ومن (... اسوان مصر إلى حد النوبة...) ضمن الأقليم الثاني... وتقع من افريقيا ضمن الاقليم الثالث "...وفيه الاسكندرية والقيروان..."[١٣].

وعند ملاحظة الشكل المذكور لتوزيع هذه الأقاليم، ووضع الجهات الأربعة في مواقعها الصحيحة يبدو أن موقع (اقليم مصر) وهو الاقليم الثالث يحتل الموقع الجغرافي الصحيح لكتلة القارة الافريقية فهو جنوب اقليم الروم الذي يشير إلى الشعوب الأوروبية وإلى غرب اقليم الحجاز وبابل اللذان يشيران إلى الشرق الأوسط من آسيا.

ومع مرحلة التعرف على الأفكار اليونانية في تقسيم المعمورة إلى اقاليم في أواخر القرن الثالث الهجري، حينما نشرت أكثر من ترجمة لكتابي "بطليموس" (جغرافيا والمجسطي) أهمل مفهوم توزيع الأقاليم بالطريقة الفارسية وحل محله مفهوم الاقاليم على شكل احزمة عريضة تمتد من اقصى الشرق إلى اقصى الغرب فوق خط الاستواء، ويختلف كل اقليم عن الآخر بعدد ساعات النهار والليل فيه. وأبان الحضارة العربية الاسلامية تزايد عدد الممالك في كل اقليم منها مع زيادة المعرفة والكشف الجغرافي للعالم حينذاك.

وعند مراجعة التوزيع الجغرافي لممالك العالم في هذه الأقاليم يتضح أن أراضي القارة تقع ضمن الأقاليم الأربعة الأولى بعد خط الاستواء، لاحظ الشكل (٢).

شكل (٢)

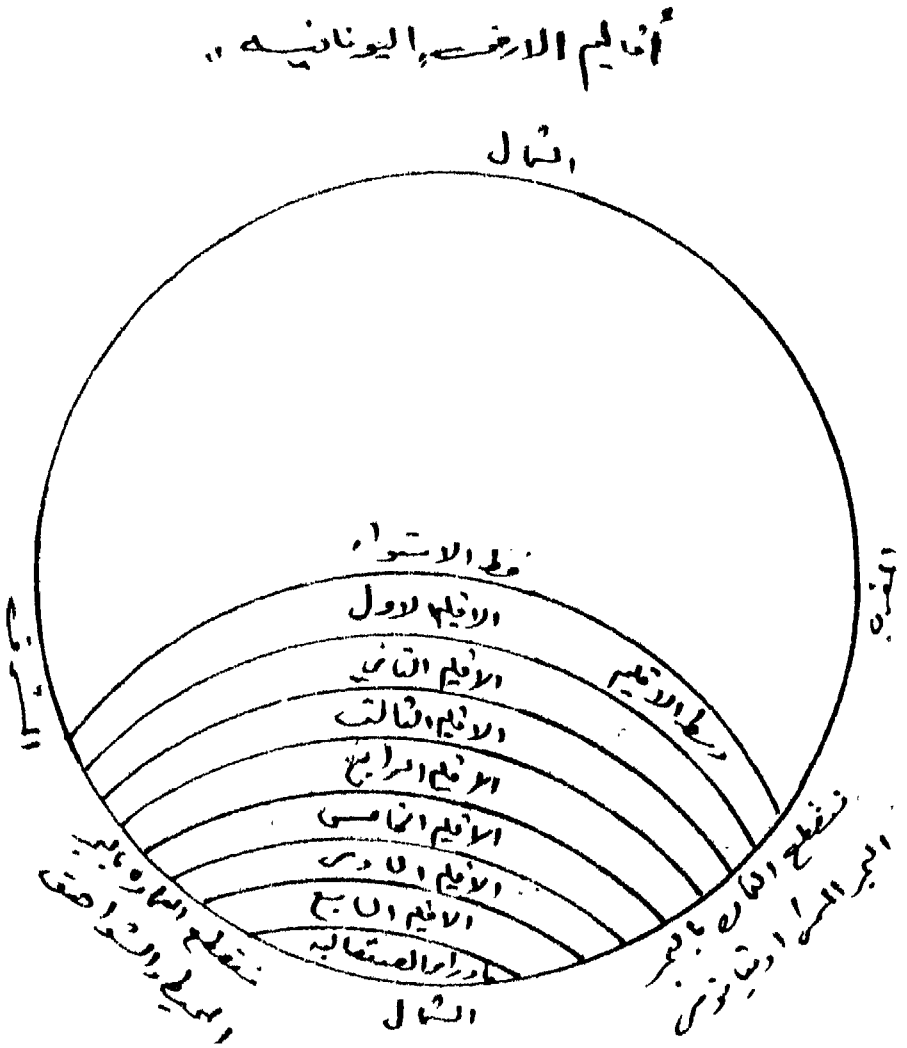
أقاليم الأرض اليونانية
الشمال
خط الاستواء
الإقليم الأول
الإقليم الثاني
الإقليم الثالث
الإقليم الرابع
الإقليم الخامس
الإقليم السادس
الإقليم السابع
دائرة الصيف
الشمال

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وهذا يعني أن تصورهم الجغرافي حول امتداد أراضي القارة كان صحيحاً لدرجة كبيرة. فالمعروف أن معظم أراضي افريقيا شمال خط الاستواء هي امتداد بين المنطقة الحارة والدفيئة. أما عن افريقيا جنوب خط الاستواء فلم تكن معروفة ولم يرتادها مكتشف. ونورد هنا توزيع "ابن رسته" لممالك العالم ضمن هذه الاقاليم مؤكدين على ما يرد عن القارة "الاقليم الأول... ثم يقطع الاقليم بحر القلزم فيمر على بلاد الحبشة ويقطع نيل مصر وفيه هناك مدينة ملك الحبشة تسمى جرمي ودنقلة مدينة النوبة في بحر الاقليم في أرض المغرب على جنوب بلاد البربر إلى أن ينتهي إلى بحر المغرب، الاقليم الثاني... ثم يقطع بحر القلزم ويمر بصعيد مصر فيقطع النيل وفيه من المدن مدينة قوس واخيم واستاي واسوان، ثم يمر بأرض المغرب في وسط بلاد افريقية ثم يمر على بلاد البربر فينتهي إلى بحر المغرب. والأقليم الثالث: يقطع إلى اسفل أرض مصر وفيها القرما وتنيس ودمياط وفسطاط مصر والفيوم بالاسكندرية، ثم يمر على بلاد برقة ثم على بلاد افريقية وفيها مدينة القيروان وينتهي إلى بلاد المغرب. الاقليم الرابع: ثم يمر في بحر الشام على جزيرة قبرس ورودس ثم يمر في أرض المغرب على بلاد طنجة وينتهي إلى بحر المغرب..."[١٤].

وتتحدد هيئة القارة وموقعها الجغرافي لديهم من خلال الأعمال الكارتوكرافية التي خلفوها، فعند ملاحظة هذه الأعمال نلاحظ أن القارة قد اتسمت في تصورهم بما يلي:

١- خوارطها قبل خارطة الأدريسي:

تظهرالقارة بخوارط (الاصطخري- نبع ٩٥١ م) (واين حوقل- ٩٧٧) (والجيهاني- في القرن العاشر ايضا) على صورة كتلة من اليابس تمتد جنوب الأرض لتحتل النصف الجنوبي بكامله، يفصل جهاتها المواجهة للصين والهند وايران بحر واسع كبير، ويفصلها عن جهاتها المواجهة لاوروبا بحر، على شكل بحيرة، يمثل البحر المتوسط، وترتبط بالبر الآسيوي عن طريق نتوء بري يمتد بين مصر وبلاد الشام، وهو شبه جزيرة سيناء.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وتتوزع الممالك في هذه القارة، فبلاد الزنج توضع عادة بجهات القارة الشرقية مقابلة للصين والهند وتمتد إلى الجنوب منها عادة براري مقفرة. أما على ساحل البحر المتوسط ويطلق عليه "بحر الشام" أو "بحر الروم" احياناً، فتمتد عليه مصر وبجنوبها ترسم "الصعيد" وقريباً من منبع نهر النيل حيث جبال القمر توضع بلاد "البجة"، ويجاور مصر المغرب، وإلى الجنوب منها توضع السوادن. وحتى نهاية القارة مع سواحل البحر المحيط توضع البراري الجنوبية وهي مقفرة ايضاً من العمران والحياة النباتية والحيوانية، بسبب شدة حرارتها صيفاً وبرودتها شتاء وندرة المياه فيها.

ويرسم نهر النيل كابرز ظاهرات سطح الأرض الطبيعية في القارة، ينبع من جبال القمر ولتحديد موضع هذه الجبال تظهر بعض الاختلافات فلبعض يضعها وسط القارة ومواجهة لساحل البحر الشامي حيث يصب النهر، والبعض الآخر يضعها شرقاً فيرسم النهر منحرفاً باتجاه الشرق والبعض الثالث يبالغ في تطرف الجبال فيضعها في الشرق، البعيد فينحرف النهر شرقاً لمسافة طويلة.

وبالإضافة إلى ذكر مصر والمغرب والسودان والبربر، ذكر «ابن حوقل» في خارطته «غانه وكوغه وسامه وغريو وكزم» وهي ممالك للكفار، لاحظ الشكل (٣).

٢- خارطة الشريف الادريسي:

وقد تميزت هذه الخارطة والتي وضعها أكبر جغرافي الحضارة العربية الاسلامية، الشريف الادريسي المغربي (١٠٩٩- ١١٦٤) بتصوير دقيق نسبياً لمناطق الجزيرة العربية والخليج العربي والبحر الأحمر والمحيط الهندي، وحدد مواقع الصين والهند لدرجة مناسبة، أما بالنسبة لقارة افريقيا فرسم الساحل الشمالي والبحر المتوسط والبحار الداخلة فيه ومضيق جبل طارق ومواقع بعض الممالك بمستوى دقيق لدرجة كبيرة. ومن الجدير بالذكر أن رسمه لسواحل مصر المتوسطية والمطلة على البحر الأحمر، ومعالم الاراضي المصرية كان دقيقاً تماماً. فرسم النيل من منابعه بجبال القمر حتى مصبه في البحر المتوسط بصورة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

شكل (٣)

خارطة العالم لابن حوقل (٣٦٧هـ) - (٩٧٧ م)

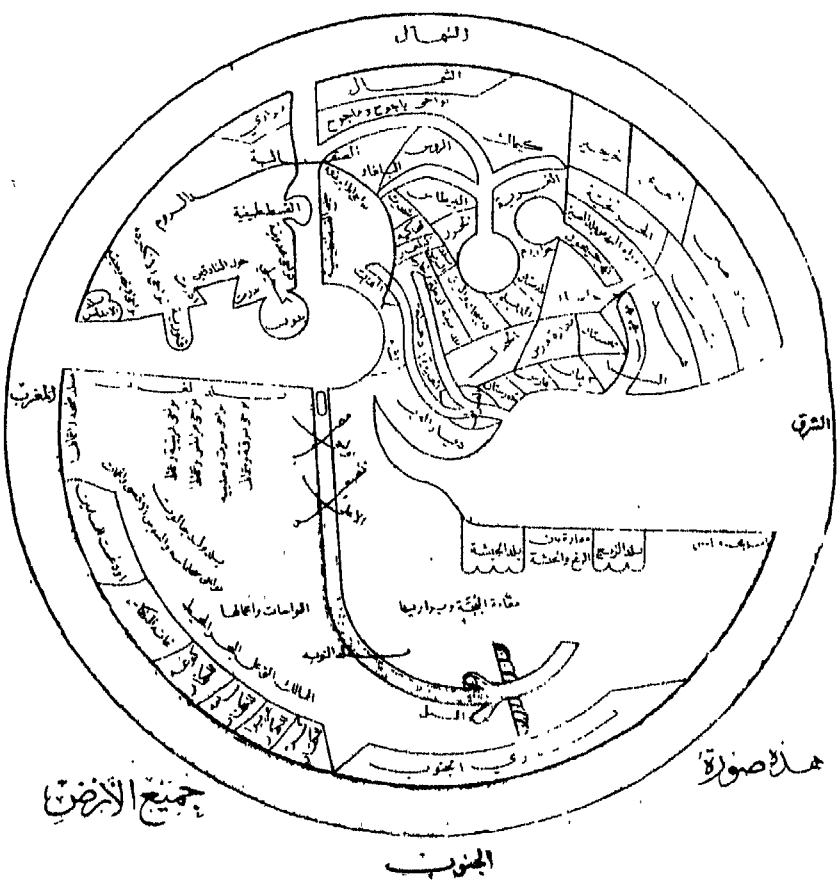

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مشابهة للوقت الحاضر وحدد مواقع الواحات، غرب النيل، والصعيد والنوبه والحبشة وفزان وبلاد غانه بمواقعها الجغرافية الصحيحة، وأهتم برسم الظاهرات الطبيعية الرئيسة فرسم جبال الأطلس المغربية وحدد الصحارى ايضاً، إلا أنه وقع بنفس الخطأ الذي وقع به سابقوه حيث رسم القارة ممتدة لتحتل نصف جنوب الأرض بأجمعه واطرافها الشرقية تقع مواجهة للصين والهند وايران، .

٣- خوارط ما بعد خارطة الشريف الادريسي:

الحقيقة أن الخوارط ظهرت مع بداية مرحلة الضمور والتقلص في مجال النشاط العلمي في الحضارة العربية الاسلامية، فتبدو هذه الخوارط ضعيفة من حيث التكنيك والابداع فهي بسيطة إذاما قورنت بخارطة السيد الادريسي، بصفة عامة، ومن أهمها كانت، خوارط (القزويني- ١٢٠٣- ١٢٨٣) و(المستوفي- ١٣٣٩) و(ابن الوردي- ١٣٤٨) و(الصفاقس ١٥٥١). وربما كانت خارطة (الصفاقس) افضلها واكثرها دقة، وقد ظهرت افريقيا عليها على صورة مشابهة للوضع الحالي تقريباً بينما ظهرت في الخوارط الأخرى على ذات الصورة التي بها رسمت في المرحلة السابقة لظهور خارطة الادريسي، لاحظ الشكلين (٤) و(٥). ونستخلص مما تقدم، أن الجغرافيين العرب المسلمين عرفوا القارة من حيث الموقع والحدود بالشكل التالي:

١- من القارات الجنوبية، فرسموها تمثل نصف الأرض الجنوبي.

٢- يفصلها بحران عن كل من آسيا واوروبا، فالبحر الذي يفصلها عن آسيا يمتد مع نصف الكرة الأرضية من بحر القلزم (البحر الأحمر) ويتجه شرقاً. فاعتقدوا أن بلاد الزنج مقابلة لبلاد الصين والهند. وربما دفعهم لذلك التصور هو التقارب بالخصائص البشرية بين سكان جنوب القارة من الفرنج والبربر مع سكان الصين والهند الصينية، من حيث الشكل واللون والبحر الذي يفصلها عن اوروبا فقد أدركوه صغيراً وعلى شكل بحيرة فرسموه كذلك ورسمو البحار الداخلة فيه، ويظهر أن معلوماتهم عنه أفضل من معلوماتهم

شكل (٤)

خارطة العالم

للقزويني (٦٠٠-٦٨٢هـ)-(١٢٠٣-١٢٨٣م)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

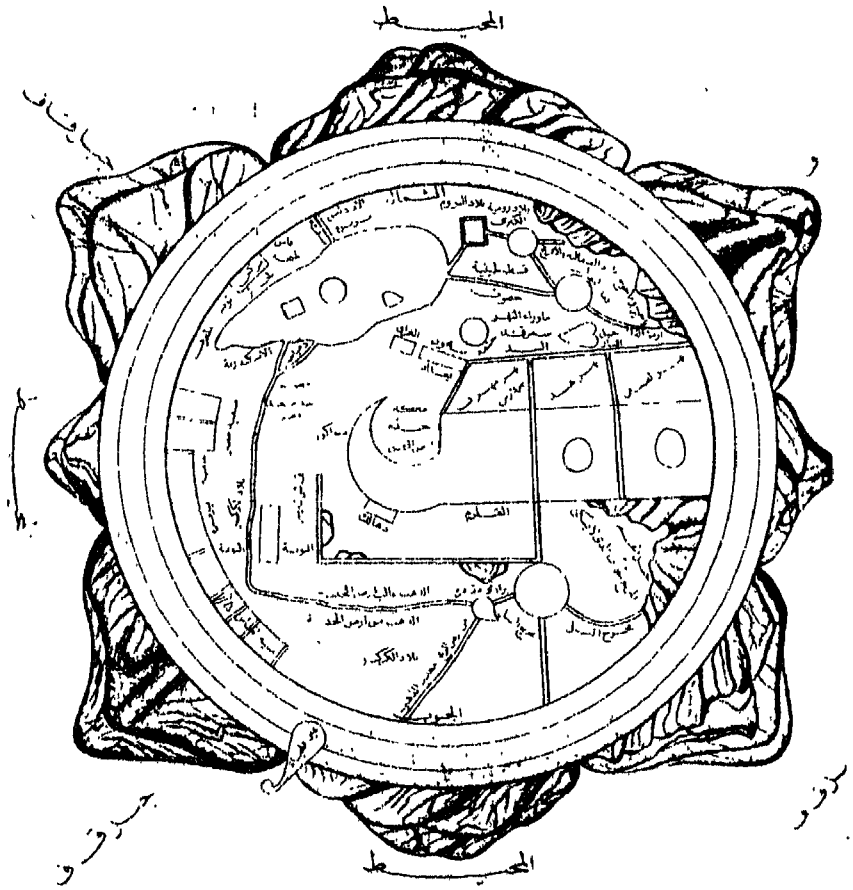

شكل (٥)

صُورَةُ الأَرض

للصَفَاقِسِيّ ٩٥٨هـ - ١٥٥١م

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عن أي بحر آخر. ويعود ذلك إلى كونه قريباً من العالم الاسلامي، وتقع عليه جنوبا وشرقا وشمالاً وغربا ممالك الخلافة الاسلامية، كما أن اليونان سبق وأن كتبوا عنه الكثير.

٣- تتصل بقارة آسيا عن طريق بر ضيق بين مصر وبلاد الشام، وهو شبه جزيرة سيناء.

٤- تقترب من أوروبا كثيرا حيث لا يفصلها إلامضيق صغير، اطلقوا عليه اسم الزقاق، وهو مضيق جبل طارق. وكانوا يطلقون على البلاد المحيطة بهذا الزقاق بلاد «طنجة».

٥- يحيطها غربا البحر المحيط، وسموه «بحر الظلمات» وتقع فيه قريباً من سواحلها جزر «السعادات الخالدات» وهي جزر «كناري».

٦- تمتد إلى الجنوب في براري مقفرة لا ينبت فيها نبات ولا يعيش فيها حيوان لشدة الحرارة وندرة المياه، وتنتهي هذه البراري مع سواحل البحر المحيط. ويبدو أن هذا الاعتقاد جاء بتأثير من الفكر اليوناني حيث ساد الرأي بأن العمران ينتهي عند منتصف المعمورة وفي الجنوب أرض قفر.

٧- عرفوا أن بحر القلزم (البحر الأحمر) يحيط سواحل القارة الشرقية فيفصل بين بلاد الجزيرة العربية ومصر والحبشة.

أذن موقع القارة من اليابس المعروف حينذاك وحدودها كانت معروفة لدى الجغرافيين العرب المسلمين عدا جهاتها الجنوبية، ولربما الأساطير والخرافات اليونانية والرومانية التي كانت تتحدث عن جنوب القارة كانت سبباً غير مشجعاً لمحاولة استكشافها والدوران حولها، حتى حان الوقت لذلك.

المساحة والمسافات:

وبصدد مساحة القارة وممالكها، فيظهر من الدراسات الجغرافية أن الاهتمام كان منصبا يومذاك على معرفة المسافات الفاصلة بين الممالك ومراكز

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

العمران، لمعرفة منازل البريد والوصف الدقيق للمالك الواصلة بين جهات العالم الاسلامي، ومن ذلك ظهر عدد كبير من الكتب التي اهتمت بوصف هذه الممالك، وصفا طبيعياً وبشرياً.

وبهذا الصدد يذكر «المسعودي» «... وقد ذكر ذووا العناية باخبار العالم أن أرض الحبشة وسائر أرض السودان كلها مسيرة سبع سنين، وأرض مصر جزء من واحد من ستين جزء من أرض السودان، وأن أرض السودان جزء واحد من الأرض كلها، وأن الأرض كلها مسيرة خمسمائة سنة، بآخر بلاد ولد ادريس بن ادريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسين بن علي بن ابي طالب عليه السلام، ومن أرض المغرب وهي بلاد تلمسان وتاهرت وبلاد فاس ثم السوس الأدنى وبينه وبلاد القيروان نحو الفي ميل وثلثمائة ميل، وبين السوس الأدنى والسوس الأقصى من المسافة نحو عشرين يوما عمائر متصلة إلى أن تتصل بوادي الزمل والقصر الاسود، ثم يتصل ذلك بمفاوز الرمل التي فيها المدينة المعروفة بمدينة النحاس وقباب الرصاص التي سار اليها موسى بن نصير في أيام عبد الملك بن مروان ورأى فيها ما رأى من العجائب...)[١٥].

وبهذا حاول «المسعودي» أن ينقل عن غيره، ما هو متعارف عليه في حساب أطوال المعمورة كلها والأراضي القفر فيها، ويظهر أن المساحات الواسعة لجنوب مصر امر معروف، كذلك شأن الأراضي الواقعة إلى غربها. والحقيقة أن الرجوع الي كتب «المسالك والممالك»، وهي كثيرة جداً، يوضح لنا حساب للمسافات الفاصلة بين ممالك العالم الاسلامي، ووصفا دقيقاً لتلك المسافات.

الأقطار الافريقية:

تناولت كتب الجغرافية العربية الاسلامية عدداً من الممالك المعروفة بذلك الوقت، بالوصف لأحوالها الطبيعية والبشرية، وكانت مصر والمغرب أكثر جهات القارة بالأهتمام والدراسة سيما مصر، وذلك لقربها من مركز الحضارة الاسلامية ولتوفر الكتابات عنها منذ أيام اليونان والرومان.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مصر

ويقول عنها «ابن الفقيه» «... سميت مصر بمصر بن اينم بن حسام بن نوح وافتتحها عمر بن العاص، قال ابن السكيت سميت مصر لأنها الحدّ وأهل هجر يكتبون في شروطهم اشترى جميع الدار بمصورها أي بحدودها... وأرض مصر محدودة أربعين ليلة في مثلها وكانت منازل الفراعنة وكان اسمها باليونانية مقدونية... وطول مصر من الشجرتين اللتين بين رفح وعريش إلى اسوان وعرضاً من برقة إلى أيله وهي مسيرة اربعين ليلة في اربعين ليلة....)[١٦].

وهنا يعلل «ابن الفقيه» سبب التسمية، ويذكر أنها الحدّ وقد يكون ذلك باعتبارها بوابة الدخول إلى القارة الافريقية بعد ترك البر الآسيوي، ويذكر أطوالها من أطرافها الشمالية إلى أطرافها الجنوبية ومن شرقها إلى غربها. ثم يتناول بعد ذلك أعمالها وعواصمها والمدن الرئيسة فيها وأهم الظاهرات الطبيعية والبشرية في كل منها والمسافات التي تفصلها.

المغرب العربي

ويبدو أنه يضم ليبيا والمغرب العربي الكبير، وقد قسمه الجغرافيون العرب المسلمون إلى ثلاث أقسام هي:

١- افريقيا: ويقصد بها في الغالب ليبيا والأجزاء الشرقية من تونس.

٢- المغرب الأوسط: ويقصد به الأجزاء الغربية من تونس وبلاد الجزائر.

٣- المغرب الأقصى: ويعني بلاد مراكش.

وقد تناولوا هذه الأقسام بالوصف والدراسة، عن الأرض والسكان، ويتحدث عنه «أبو الفداء» ... وهي مصاقبة لديار مصر من جهة الغرب والذي يحيط ببلاد المغرب المذكورة من جهة الشرق حدود وديار مصر من ظهر الواحات إلى بحر الروم عند القصبة التي على طريق المغرب بين برقة واسكندرية على بحر الروم، ومن جهة الشمال بحر الروم من القصبة المذكورة إلى فم بحر الزقاق عند سلا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وطنجة، ومن المغرب البحر المحيط من طنجة إلى صحراء لتونة في الجنوب، ومن الجنوب المفاوز الفاصلة بين بلاد السودان وبلاد المغرب وهذه المفاوز ممتدة غربا بشرق من البحر المحيط إلى ظهر الواحات من حيث ابتدأنا، وبلاد المغرب ثلاث قطع الغربية منها تعرف بالمغرب الأقصى وهو من ساحل البحر المحيط إلى تلمسان غربا وشرقا من سبته إلى مراكش ثم إلى سجلماسة وما في سمتها شمالاً وجنوباً، والقطعة الثانية تعرف بالمغرب الأوسط وهي من شرق وهران عن تلمسان مسيرة يوم شرقيها إلى آخر حدود مملكة بجايه من الشرق. والقطعة الثالثة الشرقية افريقيا، وتمتد إلى برقة إلى حدود ديار مصر، ويقال للبر الذي يوصل الى الاندلس بر العدوه وهو المغرب الأوسط والأقصى. وأما افريقيا فقابلتها صقلية والأرض الكبيرة.. وقال ابن حوقل أن تونس من افريقيا ...)[١٧].

ومن هذا النص يتضح أن الجغرافيين اطلقوا اسم المغرب على جميع شمال القارة وغرب مصر أي ليبيا وتونس والجزائر والمغرب وقسموه إلى ثلاثة أقسام كما هي واضحة الحدود، ثم يذكر رأى «ابن حوقل» باعتبار تونس جزء من المساحة التي يطلقون عليها اسم افريقيا.

السودان والحبشة

أطلق الجغرافيون المسلمون اسم السودان على كافة أراضي النصف الجنوبي من القارة، فعرفوا مصر والمغرب والصحراء الواسعة التي تفصلها عن أرض السودان، وربما جاءت هذه التسمية كنتيجة للظاهرة البشرية وهي اختلاف الجنس البشري، جنوب الصحراء، حيث يظهر الجنس الزنجي ذو البشرة السوداء والشعر المفلفل والأنوف التي تتصف بمنخرين كبيرين وشفاه غليظة.

ويبدو أنهم وصلوا إلى السودان والصومال والحبشة وتشاد والنيجر ونيجيريا وغانه ومالي وموريتانيا والسنغال، فهم بذلك وصلوا إلى خط الاستواء تقريباً. فعرفوا ممالكها حينذاك وهي النوبة والبجه والحبشة والتكرور وكوكو وزغاوة.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ونورد هنا أبرز مراكز العمران المعروفة والتي وصفت بدقة وجاء ذكرها في معظم كتب التراث الجغرافي العربي الاسلامي، مثل:[١٨]

دنقلة: «... مدينة النوبة قال عنها «ابن سعيد» هي قاعدة النوبة وفي جنوبها وغربيها مجالات زنج النوبة الذي قاعدتهم كوشة... وقال الادريسي دنقلة على غرب النيل...».

مقدشو: «... على بحر الهند وأهلها مسلمون...».

سفالة الزنج: «... وسفالة من الزنج وأهلها مسلمون وهم جنوب خط الأستواء...».

جرمى قاعدة الحبشة: «... وهي كرسي مملكة الحبشة وقاعدتهم...».

زيلع: «... وقال ابن سعيد مدينة مشهورة للحبشة وأهلها مسلمون...».

هدية: «... بلدة للحبشة جنوب وفات...».

وفات ويقال لها جبره أيضاً: «... من أكبر مدن الحبشة وأهلها مسلمون...».

«سحرتا»: «... سحرتا من اجناس الحبشة المشهورة...».

«بريسا»: «... قال ابن سعيد من أشهر بلاد التكرور وعلى شمال نيل غانه...».

«غانه»: «... قال ابن سعيد مدينة غانه محل سلطان بلاد غانه...».

«كوكو»: «... قال ابن سعيد مقر صاحب تلك البلاد وهو كافر يقابل من غربيه مسلمى غانه ومن شرقيه مسلمى كانم وقال في القانون كوكو واقعه بين خط الأستواء وبين أول الأقليم الأول...»

«بربرا»: «... وقال ابن سعيد قاعدة البربر وقد اسلم أكثرهم...».

«زغاوه»: «... قال ابن سعيد قاعده الزغاويين وقد اسلم أهلها...».

«جاجة»: «... وقال ابن سعيد وهي كرسي مملكة مفردة ولها مدن وبلاد وهي لسنكان الكانم...».

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

«ماثان»: «... قال ابن سعيد وهي في سمت ركن البحيرة المعروفة ببحيرة كوري وجنوبيها قاعدة الكانم...».

«دمدمة»: «... قال ابن سعيد ودمدمه هي التي خرج منها الدمادم على بلاد الوبه والحبشة... وهم تتر السودان...».

«بجه»: «... وهذه المدينة من بلاد البربر...».

«مركة»: «...قال ابن سعيد... وأهلها مسلمون وهي قاعدة الهاوية التي تزيد على خمسين قرية وهي على شطي نهر يخرج من نيل مقدشو...».

«قرفونة»: «قال ابن سعيد... هي أول مدن بربرا على ساحل البحر الهندي وفي شرقيها من مدن بربرا مدينة برمة...».

«الهكار»: وقد تحدث عنها «ابن بطوطة» في وصف طبيعتها وسكانها «... والهكار طائفة من البربر ملثمون... وهي بلاد قليلة النبات كثيرة الحجارة طريقها وعر...»[١٩].

ومما تقدم يمكن أن نستنتج أن الجغرافيون العرب المسلمين عرفوا القارة بالصورة التالية:

١- افريقيا العربية الاسلامية وهي الساحل الشمالي من القارة.

٢- افريقيا البربرية وتشمل الجهات الغربية من القارة والمنطقة الهجينية الفاصلة بين افريقيا البيضاء وافريقيا السوداء.

٣- افريقيا الزنجية وتسمى بلاد السودان وتشمل كافة أراضي جنوب الصحراء وما خلف المنطقة الفاصلة الهجينية.

ظاهرات السطح الطبيعية في القارة:

وضع الجغرافيون العرب المسلمون أهم ظاهرات السطح الطبيعية في القارة على الخوارط التي رسموها وهذه الظاهرات هي:

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

١- وادي نهر النيل:

أن أول من وصف نهر النيل ووضع له خارطة من منابعه حتى مصبه «الخوارزمي» ويبدو أنه اعتمد كثيراً على ما ذكره «بطليموس»[٢٠] فعرف أن منابع النيل من جبال القمر، وأن هناك بحيرتين في المنبع يخرج منهما نهر النيل الرئيس، وسمى البحيرة الغربية بالبطيحة الأولى والشرقية بالبطيحة الثانية، وقد جعل مخرج النيل الأزرق الذي ينحدر من أرض الحبشة من بحيرة ذكر عندها أنها بحيرة تصب إلى النيل ولكنه جعل مصبه إلى الشمال كثيراً من مكان التقائه الحقيقي بالنيل الرئيس، وقد اعتبر بعض الباحثين أن خارطة الخوارزمي هذه أدق من أي خارطة عربية أخرى للنيل. وعرف مجرى الفروع السبعة له في الدلتا إلا أنه لم يحدد مجراها بل حدد مصباتها بين الاسكندر ودمياط، لاحظ الشكل (٦).

ورسم «الادريسي» في خارطته جبل القمر وهو يقابل ما يعرف اليوم جبل «كلمنجارو». وكان رأيه أن النيل ينبع من هذا الجبل فذكر عنده كلمتي (نبع النيل) كما أنه رسم ثلاث بحيرات متصلة عند المنبع، الغربية منها سمّاها البطيحة الصغرى والوسطى البطيحة الكبرى، وقد اطلق على البحيرة الشرقية امس البطيحة الصغرى كالأولى، ويقابل البطيحة الكبرى ما يعرف اليوم ببحيرة فكتوريا، كما يقابل البطيحة الصغيرة الغربية ما يسمى اليوم ببحيرة البرت، ويقابل البطيحة الصغرى الشرقية ما يسمى اليوم. ببحيرة (كويجا)[٢١].

ويبدو أن الادريسي قد تعرف على منابع النيل وقدم التفسير لفيضه صيفا. وقد سبق الاستكشافات الجغرافية التي حصلت اخيراً بمئات السنين للتعرف على منابع ومجرى النيل. وبذلك يقول «العقاد» في كتابه «أثر العرب في الحضارة الأوروبية» في الصفحة الخمسين ولا يعرف أن احدا سبق الادريسي إلى بيان الحقيقة عن منابع النيل العليا كما حفظت في الخرائط التي بقيت في بعض المتاحف الأوروبية ومنها خارطة محفوظة بمتحف سان موتين الفرنسي ترسم النيل آتيا من بحيرات إلى جنوب خط الاستواء بعد أن تخبط الجغرافيون في وصف منابعه وتحليل فيضانه[٢٢].

شكل (٦)

خارطة نهر النيل للخوارزمي

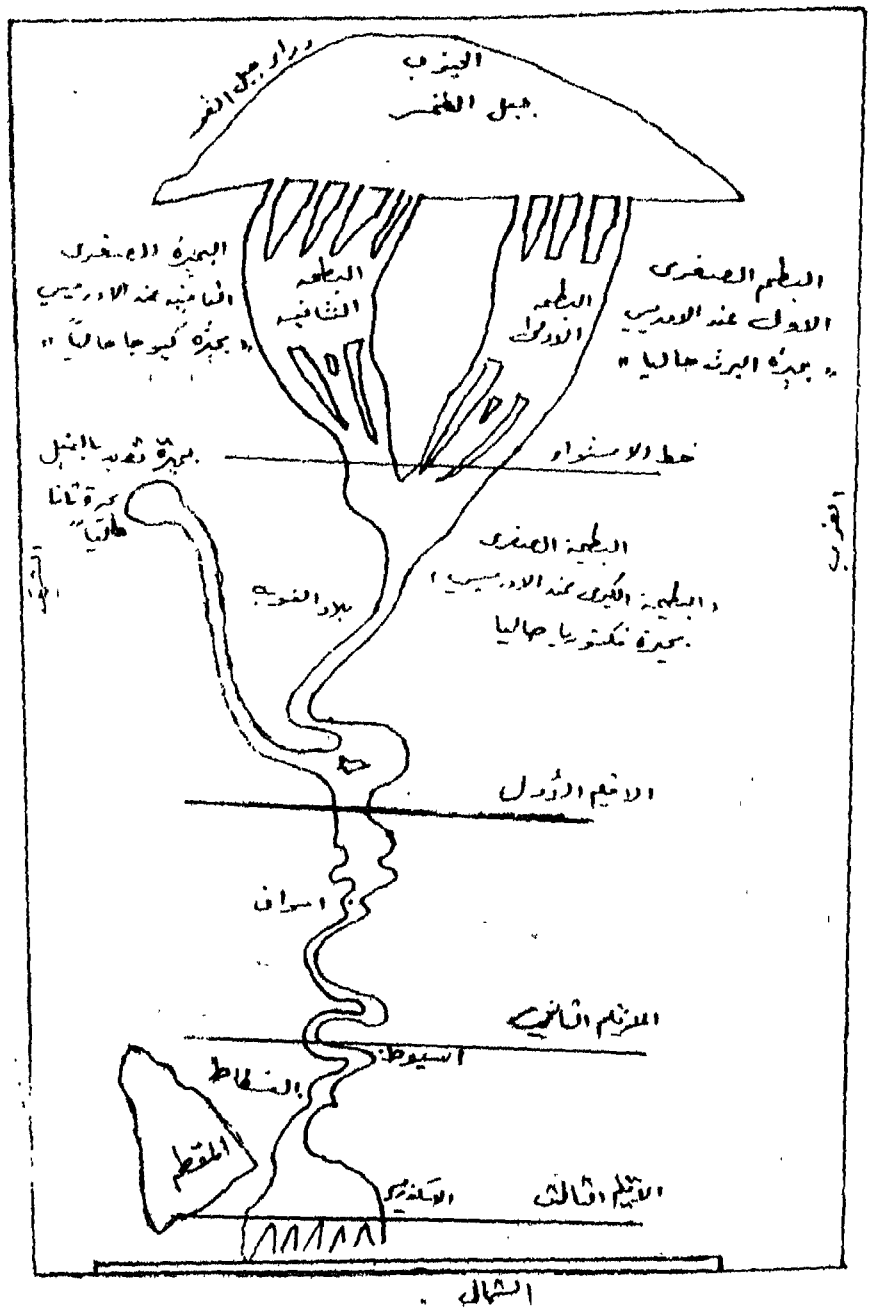

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وبصدد الفرع الشرقي الذي ينحدر من أرض الحبشة والمعروف اليوم (النيل الأزرق) ذكره «الخوارزمي» ورسمه «الأدريسي» على خارطته وجعل منبعه في بحيرة تقع في أرض الحبشة «بحيرة تانيا حالياً»، وقد جعل مصبه جنوب اسوان قريب جداً من ملتقاه بالنيل وقد سماه «الأدريسي» «نهر حارود يمين النيل» وقد قلد «الأدريسي» «البكري» في الربط بين النيل والنيجر إذ جعل مخرجيهمامن بحيرة واحدة. وقد ذاع هذا الخلط بعد ذلك في المؤلفات العربية التي نقلت عن الادريسي. وقد أطلق الادريسي. اسم «نيل السودان» النيجر وجعله يمر في أعلا بلاد غانه من السودان و يصب في البحر المحيط (المحيط الأطلسي)[٢٣].

وبقيت هذه الفكرة الخاطئة، النيل والنيجر من نبع واحد، لفترة طويلة حتى عصر الاستكشافات الجغرافية الحديثة.

ومما يذكر أن مجرى النيل رسم في بعض الخوارط يتجه نحو الشرق بعد اجتيازه بلاد الحبشة، وفي البعض منها يكون هذا الامتداد لمسافة طويلة حتى تكون منابعه في جبال القمر مواجهة لأراضي الصين. ووصف «المسعودي» بعض الخصائص الطبيعية لمجراه «... يذكر الحكماء أنه يجري على وجه الأرض تسعمائة فرسخ وقبل الف فرسخ في عامر وغير عامر حتى يأتي اسوان من صعيد مصر وإلى هذا الموضع تصعد المواكب من فسطاط مصر، وعلى أميال من اسوان جبال واحجار يجري النيل في وسطها ولا سبيل إلى جريان السفن فيه هناك، وهذه الجبال والمواضع فارقة بين مواضع سفن الحبشة في النيل وبين سفن المسلمين، ويعرف هذا الموضع في النيل الجنادل والصخور، ثم يأتي النيل الفسطاط وقد قطع الصعيد ومر بجبل الطيلمون وحجر اللاهون من بلاد الفيوم وهوالموضع المعروف بالجزيرة التي اتخذها يوسف النبي (ص) وطناً فيقطعه ثم يمضي جارياً فينقسم خلجانات إلى بلاد تنيس ودمياط ورشيد والاسكندرية كل يصب إلى البحر الرومي، وقد أحدث فيه بحيرات في هذه المواضع...»[٢٤].

وبهذا الوصف يحدد (المسعودي) مناطق الجنادل التي لا تسمح بسير السفن. ويصف «ابو الفداء» النيل «... وهو النيل العظيم المشهور الذي ليس له

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

نظير في الوجود وقد وصفه ابن سينا فقال وقد انفرد بثلاث صفات عن سائر انهار الأرض احدها أنه أطول انهار الأرض من مبتداه إلى منتهاه وذلك يستلزم لطافته بسبب كثرة الجريان، الثانية أنه يجري في رمال وصخور. نهر والثالثة أن الحجر فيه لا يخضر كما يخضر في غيره وهو يزيد في ايام نقص الانهار دائماً زيادته أنما هي الأمطار التي تقع في تلك البلاد ومبتداءه واو له الخراب الذي هو جنوبي خط الاستواء ولذلك تعسر الوقوف عليه...»[٢٥].

وبهذا الوصف ينقل «أبو الفداء» الخصائص المتفردة التي تميز بها النيل وهو كونه أطول انهار العالم وأنه يجري في أرض رملية أو صخرية فهو لا يجري بأرض طينية، وبذلك اصبح خال من الغرين وكثرة الرواسب ومياهه خالية من الوحل وهي صفة تكاد لا تتوفر في غيره. ويفيض أيام الصيف حيث موسم الجفاف في أنهار العالم عادة، ثم يذكر صعوبة الوصول إلى بعد خط الاستواء.

٢- الواحات:

ورسمها معظم الجغرافيين ووصفوها، وتقع غرب النيل في الصحراء الغربية من مصر، وهي كظاهرة طبيعية متميزة وسط الصحراء فيذكرها «أبو الفداء «... وبديار مصر الواحات وهي كثيرة النخيل والمياه الجارية من عيون هناك ويحيط بالواحات البراري كالجزيرة وسط رمال ومفاوز...»[٢٦].

ويحدد «المسعودي» موقعها ويصف طبيعة الأرض فيها فيقول «... وبلاد الواحات وهي بين بلاد مصر والاسكندرية وصعيد مصر والمغرب وأرض الأحابش من النوبة وغيرهم... وفيها ارض شبيه وزاجيه وعيون حامضة وغير ذلك من الطعوم... ويحمل من الأرض التمر والزبيب والأعناب... وتبعد عن الأحابش مسافة ستة أيام وفيها الشب وأنواع الزاج...»[٢٧].

٣- البراري:

أ- مفازة البجة: وترسم في الخوارط على هيئة صارى واسعة يشرف وادي

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

النيل بعد أرض الصعيد جنوبا وشمال براري الجنوب وتوصف بأنها مساحات مقفرة موحشة.

ب- براري الجنوب: وترسم على الخوارط على هيئة مساحات خالية خلف وسط المعمورة وتوصف بكونها رمال وصحارى وتعتبر من اقسام الأرض غير العامرة لشدة الحر فيها، وبهذا الصدد يقول «ابو الفداء» «... وقد قبل أن علة عمارة الربع الشمالي وخراب الربع الجنوبي إنما هو قرب الشمس لأنها إذا سامتت الربع الجنوبي من الأرض تكون في البروج الجنوبية في حضيضها فتكون حينئذ أقرب إلى الأرض واعظم جرما وأشد شعاعا وأثراً»[٢٨].

جـ- براري المغرب: من مصر إلى سواحل البحر المحيط وصحراء لمتونة على السواحل الغربية للقارة، ولقد ورد، عن وديانها واحجارها ورمالها والنبت القليل الذي ينمو فيها.

٤- الجبال:

أ- جبال القمر: ولعلها من أكثر المعالم التضاريسية معروفة بسبب ارتباط منابع النيل بها. وكان يقصد بها جبال (كليمنجارو) الحالية، ولتحديد موقعها اختلف الجغرافيون كما يتبين ذلك من الخوارط فالبعض منهم كالادريسي حدد موقعها قريباً من الموقع الحالي حيث يمتد نهر النيل بمجرى من الجنوب حتى مصبه شمالاً في البحر المتوسط، أما البعض منهم فرسم موقعها بعد سدّ مجرى النيل باتجاه الشمال وبالغ البعض الثالث بهذا الانحراف لمسافة طويلة حتى كاد يقابل بلاد الصين.

ب- جبل المقطم: وقد رسمه معظم الجغرافيين في خوارطهم لديار مصر، ووصفه غالبيتهم على أنه من الجبال الخيرة، أي التي تتوفر فيها موارد الخير ويقصد بها المعادن سيما المعادن الثمينة، ويذكر عنه «المقدسي» «... وبه جبل فيه معدن الذهب... وفي المقطم مقاطع حجارة بيض حسنة تنشر كما ينشر الخشب...»[٢٩].

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

جـ- جبل المغرب:

وقد رسم «الادريسي» بخارطته للعالم معالم جبال الاطلس وهي مطلة على الساحل الجنوبي للبحر المتوسط من طنجة حتى تونس ورسم الجبال الداخلية المطلة على الصحراء على هيئة قوس يتجه صوب الصحراء، وتحدث عنها بالوصف الدقيق.[٣٠]

د- جبال مصر الشرقية:

وحددها «الادريسي» بخارطته المذكورة وبخوارطه التي رسمها لمصر، وهي تمتد شرق مصر مع امتداد ساحل البحرالأحمر الغربي.

والحقيقة يرد وصف الأرض ومعالم التضرس فيها عند وصف الممالك وبهذه الطريقة يكاد الجغرافيون العرب المسلمون وصف جميع الأراضي الافريقية المعروفة يومذاك، فعلى سبيل المثال يذكر «ابن الفضيه» «وما بين النوبة وبلاد البجة جبال عظيمة منبعه في بلادهم معدن الزبرجد...»[٣١].

ويصف «المسعودي» أرض مصر بشكل عام «... وكانت مصر فيما يذكر أهل الخبرة أكثر البلاد جناناً وذلك أن جناتها كانت متصلة بحافتي النيل من أوله إلى آخره من حد اسوان إلى رشيد...»[٣٢].

ويصف المغرب ليستدل منه صعوبة خواصه الجغرافية على حياة سكانه «... وأما المغرب فيقسي القلوب ويوحش الطبع ويطيش اللب ويذهب بالرحمة ويكسب الشجاعة ...»[٣٣].

ويصف «ابن بطوطة» الممالك التي سلكها وأرض الممالك التي وصلها فيذكر عن طبيعة الأرض في غرب القارة «... الصحراء الرملية للرحيل من السودان إلى ايوالاتن ليس فيها ماء ولا نبت بل كثب متحركة ورياح شديدة...»[٣٤].

ولا يسع المجال هنا إلى وصف طبيعة الأرض في ممالك القارة جميعها، بل نؤكد أن «الادريسي» اهتم بوصف جهاتها الغربية بينما اهتم «ابن حوقل

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والاصطخري» وغيرهم بجهاتها الشرقية فوصفوا المسالك الفاصلة بين الممالك وما فيها من صحاري ورمال واحجار وجبال ووديان وأنهار.

الأحوال المناخية:

يتضح من الآراء التي تركها الجغرافيون العرب المسلمون في المناخ أنهم آمنوا بالمباديء الرئيسة التي ارساها اليونان والرومان، فقد اعتبروا الشمس المصدر الأساسي للحرارة على الأرض كما اعتقدوا بأن أسباب اختلاف درجة الحرارة في جهات الأرض المختلفة هو ميل الشمس على خط الاستواء، أو بعبارة أخرى اختلاف زوايا سقوط الشمس على الأرض. وأخذوا بالتقسيم اليوناني للمناطق الحرارية وهي المنطقة الحارة التي تقع بين المدارين والمنطقتان المتجمدتان الشمالية والجنوبية اللتان تقعان بجوار القطبين والمنطقتان المعتدلتان اللتان تقعان بين المنطقة الحارة والمنطقتين المتجمدتين.

وبصدد التفصيلات المناخية فلم تكن كتب الجغرافية الوصفية والاقليمية تعني بالبحث فيها في البداية، غير إن تلك التفصيلات ما لبثت أن أخذت تظهر تدريجياً في كتب الجغرافية العربية ضمن المعلومات الوصفية الأخرى للمدن والامصار. ومن أوائل الكتب التي تضمنت تلك المعلومات «كتاب البلدان» لليعقوبي، ويمكن أن القول المقدسي «كان من أكثر الجغرافيين العرب الأوائل عناية بالتفصيلات المناخية، فقد أكد في كتابه على الصفات المناخية لكل اقليم وكانت تفصيلاته المناخية ذات صفة وصفية وليست تعليلية [٣٥].

وعالج «المسعودي» أثر المناخ في الصفات البيولوجية والخلقية للانسان وما ذكره ويخص بعض ممالك القارة «... وأما أهل الربع الجنوبي كالزنج وسائر الأحباش والذين كانوا تحت خط الاستواء وتحت مساحة الشمس فأنهم خلاف تلك الحال من التهاب الحرارة وقلة الرطوبة فاسودت الوانهم وأحمرت اعينهم وتوحشت نفوسهم... وتفلفت شعورهم لغلبة البخار الحار...»[٣٦].

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وبهذا الوصف حاول «المسعودي» أن يقدم التعليلات المناخية للخصائص الجنسية المتميزة لسكان افريقيا السوداء، وهم الزنوج، واهتم «ابن خلدون» ... اهتماماً خاصاً في أثر المناخ في البناء الطبيعي والخلقي للبشر، فبصدد البناء الطبعيي يذكر عن الزنوج» ... فأهل الاقليم الأول والثاني شملهم هذا اللون من مزاج هوائهم للحرارة المتضاعفة بالجنوب، فأن الشمس تسامت رؤوسهم مرتين في كل سنة... فيكثر الضوء لأجلها ويلح القيظ الشديد عليهم وتسود جلودهم لأفراط الحر...»[٣٧].

وبصدد التأثير الخلقي يذكر «... والمعروف من خلق السودان على العموم الخفة والطيش وكثرة الطرب فتجدهم مولعين بالرقص على كل توقيع...»[٣٨].

ومما تقدم من النصوص السابقة نستنتج أن الجغرافيين العرب المسلمين عرفوا الخواص المناخية العامة لوسط القارة، فهي ضمن المنطقة الحارة والتي تسببت حرارتها من تعامد الشمس عليها، وهي بالإضافة لشدة حرارتها كانت رطبة، وشدة الحرارة وارتفاع الرطوبة كانت الأسباب في خواصهم الطبيعية، أي الجنسية في اللون والشكل، وفي خواصهم الخلقية، السلوكية، وهي وأن لم تكن معلومات مناخية دقيقة عن عناصر المناخ كافة، إلا أنه وصف شامل يتضمن أثر المناخ في الحياة البشرية لوسط القارة.

وقد عرفوا الأقليم المعتدلة ووصفوها بالاعتدال الحراري وباعتدال البناء الطبيعي والخلقي للبشر. وبهذا الصدد نذكر ما قاله «ابن رسته» عن اقليم بابل ونحوه من الممالك الواقعة في عروضه، وهي بذلك تشمل الشمال الافريقي «... وأما القوم الذين هم متباعدون عن مدار رأس السرطان إلى الشمال... فأن الشمس لا تبعد من سمت رؤسهم ولا تقرب منهم... فأن هواءهم حسن في التمزيج وموضعهم معتدل ليس فيه حر شديد ولا برد شديد وألوانهم وأبدانهم وطبائعهم معتدلة وعقولهم واخلاقهم حسنة...»[٣٩].

وترد الاشارات في وصف الحرارة وسقوط المطر وعلاقة ذلك بنشاط

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الانسان وفعالياته وتنوع الحياة النباتية والحيوانية، في كل مملكة من العالم الاسلامي وايحاناً عن الممالك خارج حدوده. فيذكر «المقدسي» عن الحرارة في «مصر» «... أشد حراً من سواحل الشام ويبرد في طوبة بردا شديداً...»[٤٠] وهنا تبدو المقارنة الحرارية بين مصر وبلاد الشام. ويذكر عنها «ابن الفقيه» «... ومن عيوب مصر أنها لاتمطر ويكرهون المطر ومن عيوبها الريح الجنوب التي دعونها المريسية، وذلك يسمون أعلى الصعيد إلى بلاد النوبة مريس، فإذا هبت الريح ثلاثة عشر يوما تباعاً اشترى أهل مصر الاكفان والحنوط وايقنوا بالوباء القاتل والفناء العاجل... ومن عيوبها اختلاف هوائها لأنه في يوم واحد يختلف عليهم أهوية برد وحر...»[٤١].

وبهذا يصف «ابن الفقيه» جوانب من مناخ مصر تتعلق بنظام المطر، فهي من الأقاليم الجافة التي يندر أن تسقط عليها الأمطار، ويصف الرياح الجنوبية التي تهب من الصحراء وهي محملة بالرمال، ويصف بعد ذلك تقلبات الطقس خلال اليوم الواحد، من ارتفاع وهبوط لدرجة الحرارة.

وعن «ديار المغرب» يتحدث «ابن الفقيه» عن أهمية الامطار في النشاط الزراعي «... وليس في بلاد «طنجة» نخل ولا كروم ولا زيتون ولهم القمح والشعير والأغنام ولابقر والعسل وليس لديهم قن ولا كتان ولباسهم الصوف... وزرعهم على ماء السماء..»[٤٢].

ويتحدث «ابن بطوطة» عن طقس مدينة «كلوا» وهي كما يذكرها من بلاد السودان «... ومدينة كلوامن أحسن المدن وعمارتها من الخشب وسقف بيوتها من الديس.. والامطار بها كثيرة» [٤٣] ويصف الصحراء التي قطعها بين السودان و«ابولان» بغرب القارة «... وهي شديدة الرياح وكثبانها متحركة وفي (مدينة ابولان ذاتها يقول «وهي بلدة شديدة الحر فيها نخلات يزرعون بضلالها البطيخ...»[٤٤] ويصف بلاد «الهكار» جنوب الجزائر بأنها بلاد جافة قليلة النبات وكثيرة الحجارة.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٥- الكيان البشري للقارة:

يرى معظم المستشرقين والباحثين أن الابحاث الاقليمية والبشرية تمثل أهم اضافات الجغرافية العربية إلى العلم الجغرافي القديم. فقد امدته بالمعلومات عن شعوب العالم الذي تناولته النواحي التاريخية والانثروبولوجية والاقتصادية. والحقيقة أن المعلومات ذات الصفة البشرية هي اعظم قيمة في كتب الجغرافية العربية من أية معلومات طبيعية وطبغرافية، وهي التي تكسبها أهميتها الخاصة، ويمكن القول أن الجغرافيين العرب والمسلمين كانوا من أوائل من كتب في حقل الجغرافية البشرية وأن كتاباتهم في هذا الميدان تفوق في اتساع آفاقها وتنوعها على كتابات اليونان والرومان.[٤٥]

فلقد تناولوا بالوصف مختلف نواح الحياة البشرية متحدثين عن العادات والتقاليد والحرف والأديان والطبقات الاجتماعية والمشاكل والملبس إلى آخر ما يتصل بحياة الانسان، ولم يقتصروا على هذه الجوانب فحسب بل طرقوا مواضيع أخرى من مواضيع الجغرافية البشرية وهي علاقة الانسان بالبيئة الطبيعية، وخير من بحث في هذه العلاقة هو «عبد الرحمن بن خلدون في مقدمته المشهورة».

ومن المواضيع البشرية الأخرى التي طرقها الجغرافيون العرب وكانوا رووا فيها ما يطلق عليها في الوقت الحاضر اسم «جغرافية المدن» وقد ساهم المؤرخون في قسط وافر من هذه الكتابات [٤٦]. وهناك امثلة عديدة من المؤلفات التي بحثت في وصف المدن وتاريخها وحفلت بالمعلومات الطبغرافية والاقتصادية والبشرية. ومن أمثلتهاكتاب «المقريزي» الموسوم «المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار» والذي اشتهر باسم خطط المقريزي. وكتاب «خطط بغداد «لأبي طاهر طيفور. وكتاب وصف «مكة» للازرقي، وكتاب «الاحاطة» للسان الدين الخطيب، وكتاب الرازي في وصف قرطبة وخططها، كما أورد العلامة «ابن خلدون» في مقدمته دراسة عن نشاءة المدن وتطورها وشرح مقومات المدينة.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وبصورة عامة فأن الكتابة في الجغرافية اتسمت ببعض الاهتمامات هي:

١- الحديث عن سكان البلاد وأديانهم ومذاهبهم وعاداتهم وتقاليدهم وكل ما يتعلق بالمأكل والملبس وطراز العمارة والنشاط الاقتصادي.

٢- وصف المدن وصفاً دقيقاً مع نبذة عن تاريخها ومن سكنها وأهم الآثار فيها، وهم بذلك رواد بدراسة جغرافية المدن.

٣- دراسة طرق المواصلات وأبعادها والمدن والقرى الواقعة عليها ومظاهر الاقتصاد والمجتمعات عليها.

٤- الهجرات وتاريخ الاستيطان والعمارة:

وفي سبيل استعراض دراسة الجغرافيين العرب للأحوال البشرية في القارة وممالكها سوف نستعرض بعض الأفكار دون الإسهاب في ذلك لأن محاولة ذكر كافة ماكتبه الجغرافيون عنها يتطلب بحوثاً تفصيلية هي ليست من أغراض هذا البحث.

ولأجل معرفة أصل السكان يذكر الجغرافيون والمؤرخون العرب، بأن بعد الطوفان غرقت الأرض ومات ما عليها من نبات وحيوان وبشر ولم يبق إلا من كان مع نوح وبالتالي فأن أولاد نوح هم أجداد البشر فيما بعد، وبهذا الصدد يذكر «الطبري» «... حدثني القاسم بن بشر بن معروف قال حدثنا روح قال: حدثنا سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن الحسن عن سمرة بن جندب عن النبي (ص) قال: ولد نوح ثلاثة سام وحام ويافث، فسام أبو العرب وحام أبو الزنج ويافث أبو الروم...»[٤٧].

ومن ذلك تبدو المحاولة لتفسير الأصل في الاختلافات الجنسية لشعوب الارض وهي تعرف يومذاك بالشعوب: العرب والروم والزنج وكانوا يضمون الجنس الأصفر في شرق آسيا ضمن الجنس الزنجي في الغالب، ولكل من هذه الشعوب صفات تختلف عن غيرها، فالعرب هم الجنس الأسمر، والروم هم الجنس الأبيض والذي يتصف بزرقة العيون والشعر الأشقر، والزنج هم الجنس الأسود مفلفل

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الشعر، وقد كتب الكثير من الجغرافيين عن أشكال هذه الأجناس وخصائصها ومناطق توزيعها على خارطة العالم المعروفة في تلك الفترة.

وعن كيفية استيطان القارة يذكر «الطبري» «... وزعم هشام بن محمد الكلبي أن بقية من الكنعانيين بعدما قتل يوشع من قتل منهم وأن افريقس بن قيس بن صيفي بن سبأ بن كعب بن زيد بن حمير بن سماء بن يشجب بن يعرب بن قحطان مر بهم متوجهاً إلى افريقية فاحتملهم من سواحل الشام حتى أتى بهم افريقية فافتتحها وقتل ملكها جرجيرا وامكنها البقية التي كانت بقيت من الكنعانيين الذين احتملهم معه من سواحل الشام قال منهم البرارة قال: وانما سموا بربرا لأن افريقس قال هلم: ما أكثر بربرتكم فسموا لذلك بربرا ...»[٤٨].

وقد أدرك الجغرافيون العرب أن القارة تنقسم إلى قسمين رئيسين هما:

١- افريقيا البيضاء حيث يعيش العرب والحاميون.

٢- افريقيا السوداء حيث يعيش الزنوج.

وما سبق ذكره عن «الطبري» ينطبق على السكان البيض، أما بالنسبة للزنوج فكان الاعتقاد السائد أنهم يعودون بالأصل إلى «كوش بن حام بن نوح». وعن السكان الزنوج وأصلهم وكيفية توزيعهم بين مشرق القارة ومغربها يتحدث «المسعودي» «... ولما تفرق ولد نوح في الأرض سار ولد كوش بن كنعان نحو المغرب حتى قطعوا نيل مصر ثم افترقوا فسارت منهم طائفة يمنة بين المشرق والمغرب، وهم أنواع كثيرة نحو الزغاوة والكانم ومركة وكوكو وغانه وغير ذلك من أنواع السودان والدمادم ثم افترق الذين مضوا بين المشرق والمغرب فصارت الزنج من المكير والمشكر وبربرا وغيرهم من أنواع الزنج، وقدمنا فيما سلف عن ذكر للبحر الحبش، الخليج البربري، وما عليه من أنواع السودان واتصالهم في ديارهم إلى بلاد الدهلك والزيلع وناصع، وهؤلاء القوم أصحاب جلود النمور الحمر وهي لباسهم ومن أرضهم تحمل إلى بلاد الاسلام وهي أكبر ما يكون من جلود النمورة وأحسنها للسروج، وبحر الزنج والاحابش هو عن يمين بحر الهند وأن كان مياهها

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

متصلة، ومن أرضهم يحمل الذبل من ظهور السلاحف وهو الذي تتخذ منه الامشاط كالقرون وأكثر ما تكون الدابة المعروفة بالزرافة في أرضهم وأن كانت عامة الوجود في أرض النوبة ومن سائر بلاد الاحباش...»[٤٩].

ومن ذلك يبدو أن الجغرافيين العرب استطاعوا معرفة الأقوام الزنجية التي تعيش ضمن المنطقة المدارية سواء بشرق القارة بجنوب مصر أو بغربها جنوب المغرب العربي، في غانه ومالي.

وتذكر كتب الجغرافية عن طبيعة الاستيطان البشري وتوزيعه على ساحل القارة الشمالي المطل على البحر المتوسط، فهي تذكر أن الاستيطان كان متصلاً مع طول ذلك الساحل إذ كانت العمارة متصلة من مدينة طنجة وهي آخر ركن عمراني بغرب القارة وعلى ساحل البحر المتوسط و حتى سواحل بلاد الشام، ويقول «المسعودي» والعمارة منتشرة من طنجة المتصلة بساحل المغرب وبلاد افريقية والسويس وطرابلس الغرب والقيروان وساحل برقة والرفاده والاسكندرية ورشيد وتنيس ودمياط وساحل الشام وساحل الثغور الشامية... لا تنقطع من هذا البر كله العمائر التي وصفناها من الاسلام... إلا الأنهار الجارية إلى البحر...»[٥٠]. ويستطرد الجغرافيون العرب بوصف البشر والظاهرات المتعلقة بنشاطاتهم المتنوعة عند دراستهم للأقاليم وممالكها، وكانت مصر وبلاد النوبه من أهم جهات القارة التي حصلت على نصيب جيد من هذا الوصف، يأتي بعدها المغرب ثم البلاد الزنجية بشرق القارة سيما الحبشة والبلاد الزنجية في غربها كالنيجر ومالي وغانه.

ويتدحث «ابن الفقيه» عن بعض الشعوب الزنجية «... وسكان النوبه والبجه زنوج وقبط وبربر ومن خلف بلاد (علو) أمة من السودان تدعى ثكنة وهم عراة مثل الزنج وبلادهم تنبت الذهب وفي بلادهم يفترق النيل ووراء مفرق النيل وخلف الظلمة مياه تنبت الذهب في ثكنة وغانه...»[٥١].

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وبهذا النص يتضح أن «ابن الفقيه» كان يرى من الشعب الذي يعيش في جهات السودان والصومال وارتيريا والحبشة يتكون خليط من البربر والقبط والزنوج، وخلف ذلك يتواجد الزنوج في المناطق شبه الاستوائية ويصفهم بالعراة، في كينيا شرقا ونيجيريا وغانه والنيجر ومالي والسنغال وغينيا غربا فهم القبائل الزنجية المعروفة حينذاك «كوكو» و«مرندة» و«مراوه» ثم ينتقل بعد ذلك إلى شمال القارة فيذكر فصائل البربر وهم: هوارة وزناتة وضريسه وفصيله وورفنجومه، ويصفهم بكونهم سكان الجبال والرمال[٥٢].

ويصف «ابن بطوطة» سكان مدينة «عيذاب» على ساحل البحر الأحمر، فيقول «... وأهلها البجاة وهم سود الألوان يتلحفون ملاحف صفرا ويشدون على رؤسهم عصائب يكون عرض العصابة منها اصبعا وطعامهم البان الأبل. ويركبون المهارى ويسمونها الصهب...»[٥٣].

ثم يصف بعد ذلك سكان «مقدشو» إلى الجنوب من «عيذاب»، يصفهم بأنهم من السودان ويصف عاداتهم في صنع العذاء وارتداء الزي، فيذكر أن طعامهم من الرز المطبوخ بالسمن. وآدامهم من الدجاج واللحم والحوت والبقول ويطبخون الموز قبل نضجه في اللبن (الحليب)، وكسوتهم فوطة يشدها الانسان في وسطه[٥٤]. ويصف السكان في بعض جهات القارة المدارية، الغربية، فيذكر عن سكان مدينة «كلوا» فيذكر أن أكثر سكانها من الزنوج المستحكمي السواد ولهم شرطات في وجوههم كما هي في وجوه الليمين من جناوه...»[٥٥].

ويصف أيضاً السكان في جنوب الصحراء الافريقية، في اقليم «الهكار» فيذكرانهم من البربر وملثمون.

والحقيقة أن لملاحظات «ابن بطوطة» والتي استمدها من، رحلته المشهورة، أهمية تاريخية وانثروبولوجي عن المناطق التي زارها، فكتب الكثير عن ممالك القارة الافريقية في شرقها وغربها، وكتب ملاحظات قيمة عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية لقبائل الطوارق والقبائل الزنجية التي تقطن افريقيا الغربية، ويعتبر

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

«ابن بطوطة» من أوائل الرحالة الذين اكتشفوا النظام الأمي الذي تتبعه قبائل الطوارق لا سيما في منطقة «ايولاثن» والجهات المجاورة، وهو النظام الذي يجعل المرأة مع قدم المساواة مع الرجل أن لم تكن اعظم شأناً منه، ويجعل النسب والوراثة متعلقين بالأم وعائلتها[٥٦].

ولا يسع المجال هنا إلى ذكر ما ورد في كتب الجغرافية العربية عن وصف شعوب وقبائل ممالك القارة سواء من افريقيا البيضاء أو افريقيا السوداء، فقد وردت بعض هذه الدراسات بشكل مستفيض حول اصل هذه القبائل وتاريخ استيطانها وأهم عاداتها الاجتماعية وطراز البناء ونشاطها الاقتصادي ولباسها ونظامها العائلي، كما أن البعض منها أهتم باللغات وتعد اللهجات والنواحي الثقافية، سيما في افريقيا البيضاء، عن عدد المدارس، وعن الحياة الدينية وأنواع المذاهب والمعتقدات.

أما الكتابة عن المدن، فكما ذكرنا، فإن الجغرافيين العرب المسلمين كانوا روادا لهذا الميدان فقد كتبوا عن كافة مدن الممالك والاقاليم الرئيسة والثانوية، الصغيرة، منها مبتدئين بتأريخها وتحديد موضعها الجغرافي وخصائصه الطبغرافية والمناخية ثم شكل المدينة وشوارعها وأزقتها وأسواقها وطبقات الناس فيها، ومما يذكر عن رحلة «ابن جبير» أنها شملت على وصف هام للمدن التي زارها حتى كادت أن تمثل أبرز جانب جغرافي في رحلته، وكان يولى الجانب الثقافي أهمية أكثر مما يولى أي جانب اجتماعي آخر،[٥٧] ولا يسع المجال أن ننقل وصفا للفسطاط وطنجة وغيرها من المدن الزنجية إذ فيها تفصيلات كثيرة وتحتاج إلى مجال آخر.

٦. الكيان الاقتصادي

من المعروف ان الجغرافية العربية الاسلامية العامة بالغت في التفصيلات التاريخية حتى طغت في كثير من الاحيان على المعلومات الجغرافية، والامثلة على ذلك كثيرة في مؤلفات السعودي واليعقوبي والحموي والبكري وغيرهم.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إن الجغرافيين الاقليميين اتجهوا اتجاها مغايرا حيث اختصروا المعلومات التاريخية واكدوا على المعلومات الجغرافية، الطبيعية، والاهتمام بمظاهر الحياة الاقتصادية من زراعة وصناعة وتجارة. ثم مناقشة احوال السكان الاجتماعية وخصائص المدن.

فالجغرافية العربية اهتمت كثيرا بالخصائص الاقتصادية، وبهذا الصدد يذكر المستشرق -كراتشكوفسكي- عن دراس الحياة الاقتصادية للعالم المعروف ذلك الوقت، من قبل الجغرافية العربية،».... وترك لنا العرب وصفا مفصلا لجميع البلدان من اسبانيا غرباً إلى تركستان ومصب السند شرقا، مع وصف دقيق لجميع النقاط المأهولة والمناطق المزروعة والصحاري، وبينوا مدى انتشار النباتات المزروعة واماكن وجود المعادن، ولم تجتذب اهتمامهم الجغرافية الطبيعية أوالظروف المناخية فحسب بل ايضاً الحياةالاجتماعية والصناعةوالزراعة واللغة والمعتقدات الدينية، كما لم تقتصر معرفته على بلاد الاسلام وحدها بل تجاوزت بصورة ملحوظة حدود العالم كما عرفه اليونان»[٥٨].

وقد تناولت الكتب الجغرافية الاقليمية الخصائص الاقتصادية لجهات القارة، مملكة بعد أخرى، وقوم بعدقوم، تتحدث عن النشاط الزراعي واهم الحاصلات وطرق الري والتجارة والنبات والحيوان والاحجار الثمينة والمعادن.

وبالنسبة لقارة افريقيا فمن المعتقد ان مصر ثم المغرب حضيت بأكثر الكتابات الاقتصادية، ويعود ذلك إلى الاهتمام السابق بها من قبل اليونان، ثم لكونها من اقاليم العالم الاسلامي، فلا بد من القيام بالمسح الدقيق للنتاج الزراعي والتجارات ومدخولات الافراد ومصادر الدخل الاخرى، لغرض حسابات الضرائب المفروضة بالشريعة.

ويصف «المسعودي» مصر طيلة ايام السنة فيوضح النشاط الزراعي فيها، من حيث مواسمة ومن حيث اهمية النيل في اقتصادها الزراعي».... وذكر بعض الحكماء مصر فقال: ثلاثة اشهر لؤلؤة بيضاء وثلاثة اشهر مسكة سوداء وثلاثة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

اشهر زمرده خضراء وثلاثة اشهر سبيكة ذهب حمراء، أما اللؤلؤة البيضاء فان مصر في شهر أبيب وهو تموز ومسرى وهو آب وقوت وهو ايلول يركبها الماء فترى الدنيا بيضاء وضياعها على روابي وتلال مثل الكواكب قد احاطت المياه بها من كل وجه فلا سبيل لبعض البلاد إلى بعض الافي الزوارق، واما المسكة السوداء فان شهر بابه وهو تشرين الاول وهاتور وهو تشرين الثاني وكيهك وهو كانون الاول ينكشف الماء عنها وينضب عن ارضها فتصير أرضا سوداء وفيها تقع الزراعات وللارض روائح طيبة تشبه روائح المسك، واما الزمردة الخضراء فان في شهر طوبه وهو كانون الثاني وامشير وهو شباط وبومهات وهو آذار تلمع ويكثر عشبها ونباتها فتصير كالزمردة الخضراء واما السبيكة الحمراء فان في شهر برمودة وهو نيسان وبشنس وهو آيار وبؤونه وهو حزيران يبيض الزرع ويتورد العشب فهو كسبيكة الذهب منظرا ومنفعة...»[٥٩]

ثم يصف مواسم الفيضان في النيل «.... ويبتدئ نيل مصر بالتنفس والزيادة بقية شهر بؤونه وهو شهر حزيران وابيب وهو تموز ومسرى وهو آب فاذا كان الماء زائدا زاد شهر قوت كله وهو شهر ايلول الى انقضائه فإذا انتهت الزيادة إلى ست عشرة ذراعا ففيه تمام الخراج وخصب الارض وريع للبلد عام وهو ضار للبهائم لعدم المرعى والكلأ وأتم الزيادات كلها العامة النفع للبلد كله سبع عشرة ذراعاً وفي ذلك كفايتها وري جميع اراضيها وإذا ازاد على السبع عشرة وبلغ ثمان عشرة ذراعاً كانت العاقبة في انصرافه حدوث وباء بمصر وكان النيل بلغ في زيادته تسع عشرة ذراعا وذلك سنة تسع وتسعين في خلافة عصر بن عبدالعزيز...»[٦٠].

وبهذا النص يتضح الاهتمام الجغرافي لمعرفة اسس الحياة الاقتصادية في الاقاليم المدروسة. فالمسعودي حاول ان يحدد اهمية النيل في اقتصاد مصر، واهمية مواسم الفيضان والصيهود (ادنى مستوى لتصريف النهر او انخفاض المياه إلى ادنى حد في النهر) حيث يقدم أثر كل منهما على الاقتصاد، فارتفاع منسوب المياه في النيل الى ست عشرة ذراع هو افضل منسوب لانه يغطي حاجة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الاراضي الزرعية ففيه تمام الخراج وخصب الارض وريع عام للبلد والافضل منه إذا ارتفع إلى سبع عشرة ،فبذلك تروى كافة اراضيها حتى المراعي الطبيعية التي توفر الكلاء للبهائم، اما إذا زاد على ذلك فيحصل الوباء من الفيضان.

ويتحدث ايضاً عن بحيرة تنيس ودمياط... فكان مما سئل عنه الخبر عن بحيرة تنيس ودمياط فقال: كانت ارضا لم يكن بمصر مثلها استواء وطيبة تربة وقرارة وكانت جنانا ونخلا وكرماً وشجرا ومزارع وكانت فيها مجاري على ارتفاع من الارض ولم ير الناس بلدا كان احسن من هذه الارض ولا احسن اتصال من جنانها وكرومها، ولم يكن بمصر كورة يقال انها تشبهها إلا الفيوم وكانت اكثر خيرا من الفيوم واخصب واكثر فاكهة ورياحين من الاصناف الغريبة...»[٦١].

وعن الثروة الحيوانية في النيل يذكر «الاصطخري»...، وهو اكبر من دجلة والفرات إذا جمعا وماؤه اشد حلاوة وبياضا من سائر انهار الاسلام، وفي هذا النهر يكون التمساح وسمكة يقال لها الرعاوه يرتعش من يصطادها ويخيفها جدا ونوع آخر من السمك له رجلين ويدين....[٦٢]. وعلى سبيل ذكر الثروات الاقتصادية، يذكر «البط» وقالوا البط ترعى بمصر كما ترعى «الغنم»، و «الثعابين» وليس هي في بلد غيرها، وفيها «الصوف والكتان» وليس لغيرها مثلما لها من جودة، وفيها الاودية والمراتع للحيوانات، وهي البغال المصرية والخيل العتاق والمطايا من الابل والحمير المريسية.[٦٣].

ويتحدث «المقدسي» بالتفصيل عن اقتصاديات المدن المصرية، فيقول ان مصر بلاد التجارات يرتفع منها اديم جيد، ومن الصعيد الارز والصوف والتمور والنحل والزبيب، ومن دمياط القصب ومن الفيوم الارز والكتان، ومن المدن والقصبات القفاف والحبال من الليف والزنبق والحيتان والحصر والحبوب والرخام والخل والجلود والموز والشمع والحمص..[٦٤]

وعلى سبيل ذكر العجائب من النبات والحيوان تذكر عادة «حشيشة الدقس» ويتخذ منها حبال للسفن تسمى «القرقس». وتذكر ايضا الشجرة التي تسمى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

باليونانية «المومقس» كما تذكر تماسيح النيل وحيوان «النمس التي تقطع الثعبان نصفين بزفرة واحدة وفرس النيل التي تأكل التماسيح وحيوان «الخلد» وهو دابه اعمى.

المغرب:

وعند مراجعة الكتب الجغرافية العربية الاسلامية نلاحظ ان بلاد المغرب، وهي تعنى غرب مصر وحتى بحر الظلمات، المحيط الاطلسي، اي كل من ليبيا وتونس والجزائر ومراكش، ان هذه الجهات قد حظيت باهتمام بالدراسة الجغرافي الاقتصادية، فذكرت بكثير من التفصيل مواسم الزراعة واهم الحاصلات واساليب الري ونوعية التربة، ثم ذكرت الموارد الطبيعية من النبات والحيوان والمعادن واهم التجارات. ويصف «المقدسي» «... هو اقليم طويل كبير يوجد فيه اكثر ما يوجد في سائر الاقاليم مع الرخص، كثير النخيل والزيتون... جيد الهواء والماء... ويكثرون التجاراتوالتغرب....».

وبهذا الوصف يقدم «المقدسي» خصائص اقتصادية هامة حيث يتضح انه اقليم واسع المساحة وبسبب سعة مساحته. فقد تنوعت خصائص الجغرافية، وانعكس ذلك في تنوع موارده واقتصادياته، فكان من الاقاليم التي تتوفر فيها الحاجات وهي رخيصة الثمن، ويمتاز بكثرة النخيل والزيتون وهو جيد الهواءوالماء ولهاتين الخاصيتين اهميتها باقتصاد الاقليم فالهواء الجيد يعني المناخ المعتدل والمناسب للفعاليات الزراعية، والماء الجيد يعني توفره لدرجة أنه يغطي الحاجة. ثم يصف سكان الاقليم بانهم يكثرون التجارات وهذا يعني انهم يرغبون باحتراف التجارة، وربما كان للموقع الجغرافي المتطرف عن العالم الاسلامي وقربه من البحر وتنوع منتجاته كانت خصائص جغرافية مشجعة للتوجه نحو التجارة.

وفي مكان آخر يتحدث فيقول: «.... قد غاب في الزيتون، مدنه، وبالتين وبالكرمات ارضه يجري خلالها الأنهار ويملأ غيطانها الاشجار، الا انها بعيد الاراف كثير المفاوز صعب المسالك كثير المهالك، في زاوية الاسلام موضوع وبعضه خلف البحر مقطوع...» ويتضح تماما من الوصف ان مناطق الساحل

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

خضراء عبارة عن بستان كبير تمتد في جنوبها المفاوز والبراري وهي مناطق الصحراء، وفي زاوية الاسلام يعني تطرفه من العالم الاسلامي اما بعضه خلف البحر مقطوع، فالمعروف ان الجغرافيين والمؤرخين المسلمين اعتبروا الاندلس جزء من بلاد المغرب[٦٥].

وعن منتجات اجزائه وحركة التجارة فيه يقول: «..وبه تجارات تحمل، من برقة ثياب الصوف والاكسية، ومن اصقلية الثياب المقصورة الجيدة، ومن افريقيا الزيت والفستق والزعفران واللوز والبرقوق والمزاود والانطاع والقريب، ومن فاس التمور وجميع ما ذكرنا....» ومما يذكرون من عجائب الاقليم هو «ابو قلمون» وهي دابة تحتك بحجارة على شط البحر فيقع منها وبرها، وهو، في لين الخز لونه لون الذهب لا يغادر منه شيئا وهو عزيز الوجود، فيجمع وينسج منه ثياب تتلون في اليوم الوانا، ويمنع السلطان من حمل ذلك الى البلدان الا ما يخفى عنهم، ربما بلغ الثوب عشرة آلاف دينار....»[٦٦]

ويتحدث «ابو الفداء» عن مدن الاقليم وقراه من حيث خصائصها الاقتصادية فبعد ان يحدد موضع مدينة «طنجة» يذكر عنها «وماء طنجة مجلوب من قنى اليها من بعد. وطنجة كثيرة الفواكه لا سيما العنب والكمثري...»[٦٧].

وعن مراكش «... بناها يوسف بن تاشقين في ارض صحراوية وجلب اليها المياه واكثر الناس فيها البساتين فكثر وخمها ولا يكاد الغريب يسلم فيها من الحمى...». ويصف مدينة «فاس» «... ولها جنات كثيرة وزرع وضرع وعلى نهرها الغربي ثلاثة الاف رحى وعلى حافتي النهر القرى والمدن الجليلة وهي تشبه دمشق والجبال تكتنفها ونهرها يصب في البحر المحيط.

وشاع ان في داخلها عيونا تنبع على عدد ايام السنة. قال ابن سعيد ولم ار قط حمام داخله عين ينبع إلا في فاس....».

اما عن مدينة «أودفست» «... وهي حارة جداً قال وامطارهم في الصيف ويزرعون عليه الحنطة والدخن والذرة واللوبياء والكرسنة والنخل ببلادهم كثير جدا وليس ببلادهم من الفاكهة غير التين... قال ولها اسواق جليلة...».

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وعن مدينة الجزائر «... وشرب اهلها من عيون على البحر ومن آبار وهي عامرة آهلة وتجارتها مربحةواسواقها عامرة:...».

ثم يحدد موضع مدينة «برقة» بكل دقة ويصفه ويتحدث عن اقتصادياتها «... ولبرقة جبلان فيها عدة ضياع نفيسة وعيون ماء جارية ومزارع وآثار بناء للروم جليل واسعارها على سائر الاوقات رخيصة جدا، ويجهز منها إلى مصر القطران والشراب والضآن الكثير، قال ولها ساحل ترسى به المواكب....

والحقيقة لا يسع المجال الي ذكر كافة المدن التي ذكرها «ابو الفداء» في تقويمه. فأخذنا لذلك بعضا منها لتتضح الخصائص الاقتصادية للجهات الشمالية من القارة والواقعة غرب مصر ومنها نستخلص ان الجهات الساحلية اعتمدت في زراعتها على سقوط الامطار او مياه العيون، واهم حاصلاتها الزراعية وهي محاصيل حوض البحر المتوسط، الزيتون والحمضيات، حيث يؤكد على كثرة بساتين الفاكهة والنخيل، كما اكد على زراعة الحبوب، والحنطة والرز وغيرها،واشار إلى وجود الحيوانات، كالاغنام والابل، كما اشار إلى وجود صحاري إلى الجنوب من الساحل العامر المزروع. وقد ذكر الجغرافيون العرب المسلمون خصائص الصحراء الواسعة الفاصلة بين الجهات الشمالية من القارة وبلاد السودان.

افريقيا السوداء:

يتحدث الجغرافيون والرحالة العرب المسلمون عن بلدان هذا الجزء من القارة ويهتمون بذكر الجوانب الاقتصادية من حياتهم، وعند دراستهم لها يعتبرونها اقليما واحدا يمتد من شرق القارة إلى غربها.

ومما يذكره المقدسي «عن بعض خواص هذا الاقليم الاقتصادية»... وهي بلدان مقفرة واسعة شاقة وهم اجناس كثيرة وفي جبالهم عامة ما يكون في جبال المسلمين من الفواكه، غير أن اكثرهم لا يذوقونه ولهم فواكه أخر واغذية واطعمة وحشائش لا توجد عندنا، ولا تعامل بينهم بالذهب والفضة، أما القرماطيون فتعاملهم بالملح والنوبه والحبش بالثياب...[٦٨].

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ومما تقدم يتضح مقدار التنوع في الحاصلات، فبالاضافة إلى انبات الثمار التي يعرفها العالم الاسلامي تنمو نباتات اخرى واشجار اخرى لا يعرفها العالم الاسلامي، ويذكر اسلوب تعاملهم التجاري البدائي حيث لا يعرفون النقود والمعادن الثمينة بل يعتمدون اسلوب المقايضة. ويذكر «المسعودي» الكثير عن الموارد الاقتصادية الطبيعية المتوفرة في هذه الجهات من القارة فيتحدث عن الفيلة والزرافةوكثيرا عن عجائب وغرائب الاقليم... «... والفيلة في بلاد الزنج في نهاية الكثرة وحشية كلها وغير مستأنسة، والزنج لا تستعمل منها شيئا في حروب ولا غيرها، بل تقتلها... فمن ارضهم تجهز انياب الفيلة، في كل ناب منها خسون ومائة من «...»[٦٦]

وفي مكان آخر يقول: «... ودوابهم البقر وليس في ارضهم فيل ولا بغال ولا ابلولا يعرفونها.....

وعن الزرافة يذكر «.... والزرافة عجيبة الفعل في ألفها وتوددها الى اهلها وهي كالفيلة منها وحشية ومنها مستأنسة اهلية...».

ويعود ثانية ليتحدث عن الفيلة وهي اشهر حيوانات الاقليم والصفة المميزة له، فيذكر عنها «والفيلة لا تنتج ولا تتوالد الا بارض الزنج والهند ولا تعظم انيابها بارض السند والهند على حسب ما تعظم بارض الزنج، والزنج تتخذ من جلود الفيلةالدرق...».

ويذكر لنا ان العاج الذي تجمعه القبائل الزنجية لا تنتفع به فلا تستعمله ولا تتخلى به وانما يتحلون عادة بالحديد، وعن استعمالهم الابقار في الحروب فانهم يسرجونها ويضعون لها لجم.

ويصف بعد ذلك طعامهم «..واكلهم الموز وهو ببلادهم كثير، والغالب على اقوات الزنج الذرةونبت يقال له الكلاري يقلع من الارض كالكماءة... ويعم سائر الزنج اكل النارجيل. وسنستعرض خواص بعض المدن التي وصفها الرحالة «ابن بطوطة» وكتب عنها «ابو الفداء» وغيرهما.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فيتحدث «ابن بطوطة» عن مدينة «عيذاب» «... مدينة عيذاب كبيرة كثيرة الحوت واللبن، ويحمل اليها الزرع والتمر من صعيد مصر... وطعامهم ألبان الابل....» وعن مدينة «مقادشو»... مدينة كبيرة... لسكانها جمال واغنام كثيرة واهلها تجار اقوياء وبها تصنع الثياب التي تحمل لديار مصر وغيرها ...[٧٠].

ويذكر «ابو الفداء» عن «بريسا» وهي شمال «غانه» «... وفي ديارهم القطن والابنوس عندهم كثير... واهلها تجار متجولون...»[٧١].

وعن «غانة» فقد ذكر «... وإلى غانة تسير التجار المغاربة من سجلماسة في بر مقفر ومفاوز عظيمة... ولا يحضرون منها غير الذهب الاحمر...».

وعن «دنقلة مدينة النوبة» «وطعامهم الذرة والشعير والتمر يجلب اليهم واللحوم التي يستعلمونها لحوم الابل طريقة مطحونة ومقدة وفي بلادهم الزرائف والفيلة والغزلان..». ان الخواص التي ذكرت عن اقتصاديات بلاد الزنج وعن مدنهم تدل على تحديد دقيق لطبيعة هذا الاقتصاد الغابي الاستوائي وشبه الاستوائي.

ومما تقدم يتضح جليا الاهتمام بموضوعات الاقتصاد والموارد الطبيعية في الجغرافية عند العرب المسلمين، وبذلك فان التراث الجغرافي العربي خلف تراكما من المعرفة، الطبيعية والبشرية، الاجتماعية، الاقتصاديةلجهات العالم المعروف يومذاك، وقد ادرك الجغرافيون العرب المسلمون التنوع الاقليمي الجغرافي وعرفوا آثاره في تنوع الانتاج الاقتصادي والفعاليات البشرية الاقتصادية، وجاء تعليلهم للتنوع الاقليمي حسب روحية الاسلام في تفسير الظاهرات ووفق تراكم المعرفة في حينه «ولولا ان الله عز وجل «خص» بلطفه كل بلد من البلدان واعطى كل اقليم من الاقاليم بشيء منعه غيرهم لبطلت التجارات وذهبت الصناعات ولما تغرب احد ولا سافر رجل ولتركوا التهادي وذهب الشرى والبيع والاخذ والعطاء، إلا ان الله عزوجل اعطى كل صقع في كل حين نوع من الخيرات...». ان هذا يحدد نظرية التجارة واسباب ظهورها وتطورها من وجهة نظر علمية دقيقة حيث تكمن الاسباب الاساسية في التباين والتنوع في الخصائص الجغرافية لجهات سطح الارض

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والتي تسبب التنوع بالحاصلات الزراعية والموارد الطبيعية، النباتية والحيوانية، والمعادن وغيرها، ولا بد ان يرتبط التفسير لهذه الظاهرة البشرية الاقتصادية والطبيعية، حيث تتأثر بعوامل طبيعية سببت الاختلاف في خواص الاقاليم، بوجهة النظر الدينية ايضاً.

الخلاصة:

نستنتج مما تقدم ان الجغرافيين العرب المسلمين تناولوا قارة افريقيا بالدراسة والوصف بالنقل والترجمة والترحال، وكان التراث الجغرافي اليوناني والروماني من المصادر الاساسية التي اعتمدوها الا انهم لم يقفوا عند حدود هذا التراث بل تجاوزوه بمعرفة نواقصه واخطائه ومواطن الخلل فيه.

(١) فالمعروف ان الاعتقاد لدى الجغرافية اليونانية بان القارة الافريقية تنتهي بارض يابسة بينما آمن العديد من الجغرافيين العرب والمسلمين بكونها محاطة بالبحار، ويثبت «بالاشير» وصاحبه «درمون» في كتابهما «منتخبات من آثار الجغرافيين في القرون الوسطى- الطبعة الثانية ١٩٥٧» وفي الصفحة «٢٤١» راى «البيروني» بذلك والذي يؤكد فيه بأن علامات اتصال البحر جنوب افريقيا بالبحر المتوسط «الاوقيانوس» موجوده وان لم يشاهد احد ذلك الاتصال.

(٢) واعتقد «بطليموس» ان حدود الجهات الافريقية المأهولة تقع شمال خط الاستواء باعتبار أن منطقة خط الاستواء شديد الحرارة لدرجة انها لا تسمح بالعمران، بينما ادرك «الادريسي» أن الجهات المعمورة تمتد جنوباً بعد خط الاستواء حتى تناولت دراساته منابع النيل والنيجر.

(٣) واذا وصلت المعلومات الجغرافية اليونانية الى حدود الصومال، شرق القارة فقط، فقد وصل الجغرافيون العرب الى ما بعد خط الاستواء الى خط عرض (٢٠) جنوباً فشملت معلوماتهم «موزمبيق» التي اطلقوا عليها اسم «سفالة الزنج»

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولا يسع المجال هنا الى ذكر كل ما يؤكد ان التراث العلمي الجغرافي الذي خلفه العرب المسلمون، اعتمد على الجهود العربية في الرحلة والمشاهدة وعلى مصادر التراث للحضارات السابقة لهم ومنها الحضارتين اليونانية والرومانية فهو تراث علمي عربي اسلامي وله مميزاته التي يمكن ان تميزه سواء على صعيد نظرياته او الجهود الميدانية في الوصف والكتابة.

ومما يعطي اهمية بالغة للتراث الجغرافي العربي أنه كتب بعد المشاهدة الفعلية وهذه هي منهجية الفكر الجغرافي المعاصر فمعظم المعومات المثبتة عن العالم الذي درسوه جاءت من المشاهدة الفعلية عن طريق الرحلة الجغرافية والاسفار. فقد ساح كل جغرافي الى جهات معينة من العالم الاسلامي اذا لم تكن لديه فرصة ان يسيح بالعالم كله.

وهكذا فان الادب الجغرافي العربي حفظ التراث الجغرافي اليوناني والروماني وغيرهما من تراث الحضارات القديمة، واضاف القيم الجديدة في ميدان المعرفة الجغرافية، من جهود الجغرافيين العرب والمسلمين الذين غامروا وبذلوا الكثير من اجل الاكتشاف والوصف وتقديم التفسيرات الصحيحة للظاهرات الطبيعيةوالبشريةوالاقتصادية.

وبالنسبة لقارة افريقيا فاقت المعلومات العربية كثيرا المعلومات التي خلفتهاالحضارةاليونانية من حيث سعةالرقعة المكانية، ومن حيث الاهتمام بعناصر سطح الارض، الطبيعية والبشرية والنشاطات الاجتماعية والاقتصادية.

واخيرا نشير ان الاهتمام كان اوسع بمصر وذلك لكونها قريبة من قلب العالم الاسلامي ثم بالمغرب لكونه ضمن هذا العالم، اما افريقيا الزنجية فمن البديهي ان تحظى باهتمام اقل لكونها خارج العالم الاسلامي ولبعدها ولظروفهاالجغرافية، الطبيعية والبشرية، الصعبة، ومن الكتب الجغرافية الاقليمية التي اهتمت بمصر بالتفصيل نورد امثلة وهي «كتاب البلدان» «لليعقوبي» و «صورة الارض» لابن حوقل و «احسن التقاسيم» للمقدسي وكتابات «المسعودي» و «الافادة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والاعتبار» لعبد اللطيف البغدادي. اضافة إلى الموسوعات ومنها «صبح الاعشى» للقلقشندي. اما عن بلاد المغرب فاوسع التفصيلات في «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» «للأدريسي» و «مسالك الممالك » للبكري وغيرهما. وقد اشرنا إلى هذه المصادر ليستفيد منها من يرغب الاستزادة في التعرف على الجهود الجغرافية العربية وعلى قارة افريقيا بذلك التاريخ.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الهوامش

١. انظر

- الراوي، حبيب (١٩٧٤) المصادر اللغوية للجغرافية عند العرب، مجلة الجمعية الجغرافية العراقية، المجلد الثامن،- ص،٣٥-٦٨.
- السامرائي، ابراهيم (١٩٦٧) ما يفيد الجغرافي من مادة لغوية، مجلة الجمعية الجغرافية العراقية، المجلد الرابع.
- جمال الدين، محسن (١٩٦٣) معجم البلدان لياقوت الحموي، مجلة الجمعية الجغرافية العراقية، المجلد الثاني.

٢. الراوي، مصدر سابق، ص٣٠-٦٠.

٣. السامرائي ابراهيم، بداية الفكر الجغرافي عند العرب، مجلة الجمعية الجغرافية العراقية.

٤. شوكت، ابراهيم (١٩٦١) تفكير العرب الجغرافي وعلاقةاليونان به وحقيقة كتاب جغرافية بطليموس واصالته، مجلة الاستاذ (كلية التربية) جامعة بغداد، المجلد التاسع، ص٨-٣٢.

٥. انظر:

- ابو سعد، احمد (١٩٦١) ادب الرحلات، منشورات دار الشرق الجديدة، بيروت.
- نفيس، احمد جهود المسلمين في الجغرافيا، (سلسلة الالف كتاب)، ترجمة فتحي عثمان، مطابع دار القلم، القاهرة.
- سوسة، احمد (١٩٥٩) العراق في الخوارط القديمة، (مطبوعات المجمع العلمي العراقي) مطبعة المعارف، بغداد.
- كراتشكوفسكي، اغناطيوس يلويانوفتش (١٩٦٣) تاريخ الادب الجغرافي العربي، (نقله إلى العربية صلاح الدين عثمان هاشم) القسم الاول (جامعة الدول العربية، الادارة الثقافية، مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر، القاهرة، ص٢٢).

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٦. المصدر السابق ٢٠ – ٢٧ .

٧. المصدر السابق، ص ٢٢ – ٣٠ .

٨. خصباك، شاكر (١٩٧٥) في الجغرافية العربية، الطبعة الأولى، مطبعة دار السلام، بغداد، ص١١٦ .

٩. المصدر السابق، ص١١٦ .

١٠. المصدر السابق، ص١١٦ .

١١. سوسه،احمد (١٩٧٤) الشريف الادريسي، الباب الاول (خارطة بطليموس).

١٢. المسعودي،ابي الحسن علي بن الحسين بن علي (١٩٦٥) مروج الذهب وجواهر المعدن، (تحقيق يوسف اسعد صاغر)، الطبعة الاولى، دار الاندلس للنشر، بيروت، ص١٠٢ .

١٣. المقدسي، المعروف بالبشاري (١٩٠٩) احسن التقاسين في معرفة الاقاليم، الطبعة الثانية، ليدن- مطبعة بريل ص٥٩، ص٩٠.

١٤. خصباك، مصدر سابق، ص٤٠ .

١٥. المسعودي مصدر سابق، ص١٨٦ .

١٦. ابن الفقيه، ابو بكر احمد بن ابراهيم الحمداني (١٣٠٢) مختصر كتاب (البلدان، ليدن، مطبعة بريل، ص٥٦–٥٨).

١٧. ابو الفداء، عماد الدين بن محمد بن عر (١٨٤٠)، تقويم البلدان، باريس، دار الطباعة السلطانية، ص١٢٢ .

١٨. المصدر السابق، ص١٣٩–١٦٢ .

١٩. ابن بطوطة، (١٩٦٤) رحلة ابن بطوطة، دار صادر، دار بيروت، ص٦٩٩ .

٢٠. سوسه، الشريف الادريسي، مصدر سابق، الباب الثاني، ص ٤٠٦ .

٢١. المصدر السابق، ص ٤٠٨ .

٢٢. المصدر السابق، ص ٤٠٨ .

٢٣. المصدر السابق، ص ٤٠٨ .

٢٤. المسعودي، مصدر سابق، تحقيق (محمد محيى الدين ج١ ، الطبعة الرابعة ص ١٠٠– ١٠١ .

٢٥. أبو الفداء، مصدر سابق، ص ٤٥ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٢٦. المصدر السابق، ص ١٠٥.
٢٧. المسعودي، مصدر سابق (تحقيق محيى الدين) ج١، الطبعة الرابعة، ص ٢٨.
٢٨. ابو الفداء، مصدر سابق، ص ٥.
٢٩. المقدسي، مصدر سابق، ص ٢٠٩.
٣٠. المسعودي، مصدر سابق (تحقيق محمد محيى الدين)، ص ٢٩.
٣١. ابن الفقيه، مصدر سابق، ص ٧٩.
٣٢. المسعودي، مصدر سابق (تحقيق محمد محيى الدين)، ص ٣٤٥.
٣٣. المصدر السابق، ص ٦٢.
٣٤. ابن بطوطة، مصدر سابق، ص ٦٧٦.
٣٥. خصباك، مصدر سابق، ص ١٧٩.
٣٦. المصدر السابق، ص ١٨٢.
٣٧. المصدر السابق، ص ١٨٧- ١٨٨.
٣٨. المصدر السابق، ص ١٨٨.
٣٩. المصدر السابق، ص ١٨٩.
٤٠. المقدسي، مصدر سابق، ص ٢٠٢.
٤١. ابن الفقيه، مصدر سابق، ص ٢٠٢.
٤٢. المصدر السابق، ص ٨٤.
٤٣. ابن بطوطة، مصدر سابق، ص ٢٥٨.
٤٤. المصدر السابق، ص ٦٧٧.
٤٥. خصباك مصدر سابق ص ١٦.
٤٦. المصدر السابق، ص ١٦.
٤٧. الطبري، ابي جعفر محمد بن جرير (١٩٦٧) تاريخ الطبري (ج١).(تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم (ذخائر العرب ٣٠)، الطبعة الثانية، دار المعارف بمصر، ص ٢٠٩).
٤٨. المصدر السابق، ص ٤٤٢.
٤٩. المسعودي، مصدر سابق، ص ٤٢٢.
٥٠. المصدر السابق، ص ١٢٢.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٥١. ابن الفقيه، مصدر سابق ص ٧٩.
٥٢. المصدر السابق، ص ص ٨٢.
٥٣. ابن بطوطة، مصدر سابق، ص ٥٢.
٥٤. المصدر السابق، ص ٢٥٥.
٥٥. المصدر السابق، ص ٢٥٧.
٥٦. خصباك، مصدر سابق، ص ٢٩٨.
٥٧. المصدر السابق، ص ص ٢٥٣.
٥٨. كراتشكوفسكي، مصدر سابق ص ٢٢.
٥٩. المسعودي، المصدر السابق، ص ٣٣٩.
٦٠. المصدر السابق، ص ٣٤٢.
٦١. المصدر السابق، ص ٣٤٨.
٦٢. الاصطخري، مصدر سابق، ص ٢٨.
٦٣. ابن الفقيه، مصدر سابق، ص ٩٩.
٦٤. المقدسي، مصدر سابق، ص ٢٠٢.
٦٥. العبادي، أحمد مختار (بدون تاريخ) في تاريخ المغرب والاندلس (مؤسسة الثقافة الجامعية) الاسكندرية، ص ١١.
٦٦. المصدر السابق، ص ٢٤١.
٦٧. ابو الفداء، مصدر سابق، ص ١٣٣.
٦٨. المقدسي، مصدر سابق، ص ٢٤٢.
٦٩. المسعودي، مصدر سابق ج١، ص٣٢٥.
٧٠. ابن بطوطة، مصدر سابق، ص٢٥٢-٢٥٣.
٧١. ابو الفداء، مصدر سابق، ص١٥٧-١٥٩.
٧٢. ابن الفقية، مصدر سابق، ص٢٥١-٢٥٢.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الثاني

ابن خلدون في التراث العلمي

وضح ابن خلدون رؤيته للتاريخ البشري في مقدمته، فكتب في الباب الأول: «عن العمران البشري وجغرافيا العالم، وتأثيرات التغاير الجغرافي على سايكولوجية المجتمعات البشرية، وتكوينها الجسدي ونشاطها الحضاري. ويصف تطور المجتمعات البشرية ابتداً من طور بداوتها الأولى مروراً بالزراع وانتهاءً بالحضارة، ثم أفولها[1].

لقد سبق ابن خلدون غيرة من الجغرافين في رسم صورة المجتمعات والدول والمراحل التي تمر بها وهي مرحلة الطفولة ثم الشباب ثم الكهولة والسقوط.

ويلاحظ على هذا الباب أن ابن خلدون يسرف في وصف جغرافية العالم بصورة خاصة معتمداً على المهارات فاقتصر دوره على تجميع المادة الجغرافية وتنسيقها واضافات وتعليقات محدودة.

فابن خلدون كغيرة من الكتاب في عصرة، اتبع اسلوب الوصف مستمد معظمه من المصادر، يطلق عليه المؤرخون المعاصرون عملاً استعراضياً أو استطرادياً، لا يقارن بالجوانب الاصلية في مقدمة ابن خلدون، فقد وضع قوانيين ودلل عليها، واتبع اسلوب المقارنه والتحليل والاستنتاج والابتكار.

وفي الباب الثاني «في العمران البدوي والأمم الوحشية والقبائل وما يعرف في ذلك من الأحوال» يصور ابن خلدون الحركة التاريخية للمجتمعات البشرية على النحو الآتي:

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

١) المرحلة البدائية الأولى (قبل أن تتنقل).

٢) المجتمعات البدوية، أن البدو أقدم من الحضر وسابق عليه وأن البادية أصل العمران والأمصار مدد لها، وأن البدو أقرب الى الخير من أهل الحضر، وأن اهل البدو أقرب الى الشجاعة من أهل الحضر، وأن سكن البدو لا يكون الا للقبائل أهل العصبية ... أن العصبية إنما تكون من الالتحام بالنسب أو ما في معناه...[١]

٣) الطور الحضاري.

ويحدثنا ابن خلدون في الباب الثالث عن الدولة واسباب انهيارها فيقول ... أن كل دولة لها حصة من الممالك والأوطان لا تزيد عليها ... وأن عظم الدولة واتساع نطاقها وطول أمدها يعتمد على نسبة القائمين بها في القلة والكثرة وأن الأوطان الكثيرة القبائل والعصائب قل أن تستحكم فيها الدولة وأنه اذا استحكمت طبيعة الممالك من الانفراد بالمجد وحصول الترف والدعة اقبلت الدولة على الهرم ... وأن الدَولة لها أعمار طبيعية كالأشخاص.[٢]

فالباب الثالث في مقدمة ابن خلدون تناول الدولة بالدراسة والتحليل، ويكون بذلك من اوائل الجغرافيين الذين كتبوا بالجغرافية السياسية.

فمن أفكاره في الجغرافية السياسية أن لكل دولة مساحة من الأرض لا تزيد عليها، بمعنى ليس لها اطماع في اراضي الدول المجاورة. وأن مساحة الدولة الكبيرة تحتاج الى عدد سكان كبير وتوزيع جغرافي متوازن لتحسن الدولة حماية تلك المساحة.

ومن أفكاره في الجغرافية السياسية أن الدولة ذات القبائل المتعددة تكون عرضة للاخطار والحروب والانقسام، ونضرب مثالين على أفكار ابن خلدون من واقع العالم الحالي (١٩٩٥)، فالمثال الأول نأخذة ممثلة بالأردن، فهي تنعم بالاستقرار السياسي والأمن وانتفاءالمشاكل الداخلية، وهذا مرده الى أن السكان في الادرن من أصل واحد، لهم لغة وعادات وامال واهداف مشتركة، وهم متساون

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

امام القانون. وبالمقابل نجد يوغسلافيا -سابقاً- دولة تضم شعوب واجناس مختلفة مكونة من مقاطعات (الصرب والجبل الاسود وكرواتيا والبوسنة والهرسك) لهم الوان ولغات واديان مختلفة، لذا سرعان ما تفجر بها النزاع المسلح، ورغم محاولات دول العالم الكبرى وقف الصراع المسلح، فلم تفلح حتى الآن (ايار، ١٩٩٥).

ينتقل ابن خلدون في الباب الرابع «في البلدان والأمصار وسائر العمران وما يفرض في ذلك من الأحول». يتحدث فيه عن المدينة كمركز حضاري يقطنها الجماعات البشرية والتي تعود في اصلها الى البداوة، تكون هذه المدن نواة لتشكل دولة، ويتحدث ايضاً عن طبيعة العلاقة بين المدينة والدولة، وعن الظروف التاريخية والقوانيين التي تتحكم في نشأة المدن ونموها ثم تدهورها وانحلالها.

وتتميز كتابات ابن خلدون عن طبيعة الدولة بكثرة تحليلاته وعمق استنتاجاته وغزارتها. فمن اقواله في هذا الصدد (أن الدولة أقدم من المدن والأمصار وانها انما توجد ثانية عن الملك ... وأن المدن العظيمة والهياكل المرتفعة إنما يشيدها الملك ... وأن الهياكل- أو المؤسسات- العظيمة لا تستقل ببنائها الدولة الواحدة... وأن المباني والمصانع في الملة الاسلامية قليلة بالنسبة إلى قدرتها والى من كان قبلها من الدول).

وقد طرق ابن خلدون «جغرافية الأمصار»، وبين مبادىء الخراب في الأمصار، اذ قال: أن تفاضل الأمصار والمدن في كثرة الرفة لأهلها، ونفاق الأسواق إنما هو في تفاضل عمرانها في الكثرة والقلة ... وأن الأقطار في اختلاف احوالها في الرفة والفقر مثل الأمصار ومن اصناف الناس يحترف بالتجارة وايهم ينبغي لها اجتناب حرفها... وأن خلق التجارة نازلة عن خلق الأشراف والملوك ... ويتحدث ايضاً ابن خلدون عن الصناعة والنقل والاحتكار، فيقول: أن رخص الأسعار مضر بالمحترفين ... وأن الصنائع لا بد لها من المعلم ... وأن الصنائع تكمل بكمال العمران الحضري وكثرته ... وأن رسوخ الصنائع في الأمصار انما هو برسوخ الحضارة وطول امدها ... وأن الأمصار إذا قاربت الخراب انتقصت فيها الصنائع.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وفي الباب الثالث من مقدمة ابن خلدون يؤكد اكثر من مرة على مفهوم العصبية باعتباره اساساً لقيام الدول، كما يؤكد أن الدعوة الدينية تزيد في قوة الدولة، ويرجع ذلك الى أن الصبغة الدينية، تذهب بالتنافس والتحاسد الذي في أهل العصبية ويضرب مثال على أن لرابطة الدين قوة تزيد من صلابة الدولة ، أن جيوش المسلمين في القادسية واليرموك كانت بضعاً وثلاثين ألفاً في كل معسكر، وجيوش فارس مائة وعشرين الفاً في القادسية، وجيوش هرقل اربعمائة الف ... فكانت النتيجة هزيمة الفرس والروم. وهذا ينطبق ايضاً على دولة لمتونه[٤] ودولة الموحدين[٥] في المغرْب، فقد كان بالمغرب كثير من القبائل تفوق قبائل لمتونة والموحدين، الا أن الاجماع الديني ضاعف قوة قبيلة ٠ لمتونة والموحدين وكان سبب انتصارهم على غيرهم من القبائل ويواصل ابن خلدون تحليلاته حول ضعف الدولة التي تتبنى العصبية وتتخلى عن الدين، فيقول ...اذا تخلت الدولة عن الدين وفسدت، ينتقص امرها..ويصير الغلب على نسبة العصبية وحدها دون زيادة الدين، فيغلب الدولة من كان تحت يدها من العصائب المكافئة لها أو الزائدة القوة عليها الذين غلبتهم بمضاعفة الدين لقوتها ولو كانوا اكثر عصبية منها وأشد بداوة ويضرب ابن خلدون على ذلك مثالاً، عندما تبنت دولة الموحدين الدين غلبة قبيلة زناتة (القبيلة البربرية) التي كانت اكثر عدداً من الموحدين وعندما تخلوا عن الصبغة الدينية تغلبت عليهم زناتة من كل جانب وغلبوهم على الأمر وانتزعوه منهم[٦].

ناقش ابن خلدون قوة الدولة ومدى تاثير العصبية والدين على درجة قوتها، فيحيد ابن خلدون العصبية في حالة دخول الدين في الصراع بين الدول، فاذا ما غاب الدين كان للعصبية، كقوة عددية واجتماعية أن تلعب دورها، أما مع الدين فتكون أشبه بأداة، أو عامل مساعد، فابن خلدون في مواقع اخرى من مقدمته يفوق الدين على العصبية ويجعلها صاحبة الفاعلية الأولى في الغلبة السياسية، والفعل التاريخي عموماً، فقد ادرك ابن خلدون دور الدين مبكراً، فادرك أبعاد هذا الدور، ... اذا حصل لهم الاستبصار في أمرهم، لم يقف لهم شيء لأن الوجهة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

واحدة والمطلوب متساوٍ عندهم وهم مستميتون عليه ... وامام الدين ينهار منطق العدد في الصراع التاريخي، وينهار ايضاً منطق الارتباط النسبي بالعصبية والقوة البدائية المجردة التي تنبثق عنه ويحل محلها جميعاً الاستبصار الديني لموقف الانسان بالعالم وعلاقته بالله خالق الكون والحياة والانسان، ليتحول الانسان المؤمن بالله ورسوله إلى كتلة ديناميكية من الحركة المعقدة لا يقف لها شيء ...

ويقف ابن خلدون بقوة مع الجماعة المؤمنة والتي وجهها الايمان الديني والاستبصار ... اذ بمقدورها قلب المقاييس الظاهرية للصراع وتفعل المعجزات.

الا أن ابن خلدون يؤكد في مواقع متعددة في مقدمته «أن الدعوة الدينية من غير عصبية لا تتم»، ويدعم رأيه بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم «ما بعث الله نبياً الا في منعه من قومه»[٧]

ويضرب ابن خلدون مثالاً آخر من التاريخ على أن الدعوة الدينية دون عصبية لا تتم، فيضرب مثالاً تاريخياً من بغداد بلد ابو جعفر المنصور، اذ يقول انه بعد مقتل الأمين سادت الفوضى والفساد بغداد، فقام ببغداد «خالد الدريوسي» يدعو الناس الى الامر بالمعروف والنهي عن المنكر. تبعه في الدعوة «سهل الأنصاري»، فما كان من«ابراهيم بن المهدي» حاكم بغداد أن جهز له جيشاً، فغلبه واسره عام ٢٠١هـ، وانحل امره سريعاً، ذلك، لأنه لم يستند في دعوته الى عصبية تحميه وتنشد أزره[٨].

ان نظرية ابن خلدون في الحكم ترتكز على تبني الحكم الدين والعصبية ... اذ يقول .. إن العصبية بدون دين لا تحقق شيئاً كبيراً، والدين بدون عصبية لا يتحرك وقتاً طويلاً ... لا بد من اقتران الجانبين ....

ان نظرية ابن خلدون هذه تنسحب في ايامنا هذه على معظم الحكومات العربية التي تتبنى الدين بالاضافة الى الارتكاز على القبلية ... وبعض الدول العربية ترتكز في نهاية القرن العشرين على الدين بالاضافة الى التنظيمات الحزبية.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويتحدث ابن خلدون في الباب الأول من مقدمته، عن جغرافية العالم، وعن مدى تأثير وفعل العوامل الجغرافية على تكوين الجماعات البشرية ونشاطها الاقتصادي والاجتماعي والعمراني ... ويوضح أن الأديان السماوية الثلاث نبعت من المنطقة المعتدلة وهي (جزيرة العرب ومصر والهلال الخصيب)، فالمنطقة المعتدلة هذه تقع في الاقليم الرابع ففيه اعدل العمران ... والاراضي الواقعة بمحاذاة الاقليم الرابع هي اراضي الاقليم الثالث والخامس وهي أقرب إلى الاعتدال ... فلهذا تعد المباني والملابس والمصنوعات والاقوات والفواكه وجميع منتجات هذه الأقاليم الثلاثة المتوسطة مخصوصة بالاعتدال. والتكوين الجسمي للسكان اعدل اجساماً وألواناً واخلاقاً ، وانها صاحبة النبوات، وذلك أن الأنبياء انما يختص بها أكمل النوع في خلقهم واخلاقهم وقال تعالى «كنتم خير امة اخرجت للناس»[٩]، وذلك ليتم القبول لما يأتيهم به الأنبياء من عند الله.[١٠]

ويضاف الى رأي ابن خلدون في أن الاقاليم الثلاثة السابقة الذكر تلقت دعوات الانبياء لأن هذه المناطق أكثر اعتدالاً ورشداً ... هو الموقع الجغرافي لهذه المنطقة، فهي تطل على بحار دافئة طيلة أيام السنة (الخليج العربي وبحر العرب والمحيط الهندي والبحر الأحمر والبحر المتوسط والمحيط الأطلسي).

وهي معبر للطرق التجارية بين الهند وأوروبا ... الأمر الذي يسهل انتشار الدين الى جميع انحاء العالم المعمور في تلك العصور.[١١]

وفي الباب الثالث يتحدث ابن خلدون عن «الدولة المستجدة التي تستولي على الدولة المستقرة بالمطاولة لا بالمناجزة» أي بالحروب الطويلة المدى لا بالحرب المباشرة السريعة ... ويضرب على ذلك امثلة متعددة مثل الفتوحات الاسلامية لبلاد فارس والروم والتي يعتبرها غير عادية لأنها انجزت بفترة قياسية أي بسرعة والسبب في ذلك استماتة المسلمين في جهاد عدّوهم استبصاراً بالايمان وما أوقع الله في قلوب الفرس والروم من الخوف والهزيمة.[١٢]